
الحُب في التوقيت المحلي للحرب

الحب في التوقيت المحلي للحرب

حين يُزهِر الرصاصُ غراماً

رواية

تأليف : وطـن

© 2026 وطن

جميع الحقوق محفوظة

الإهداء

إلى الناجين من الحرب ، و إلى من رحلوا ، و إلى من أحبّوا .

و إلى من لم أنطق اسمه لكن كل صفحةٍ هنا تنطق به ، الغائب الذي أشعل هذه الرواية ، والحاضر في كل نبضةٍ منها .

و إلى حبيبي أنس ، الذي لم ألتقِ به لكن كل هذه الرواية بدأت منه ، و إلى كل أنسٍ يشبهه في هذه البلاد .

إلى الرجال الذين إذا قالوا صدقوا ، و إذا وعدوا أوفوا ، و إذا أحبّوا صانوا و لم يجعلوا القلب محطةَ عبور ولم يتركوا فيه شرخاً واحداً لأنهم يدركون أن الكلمة عهدٌ لا يُنقض ، و أن القلوب أماناتٌ لا تُكسر .

إلى اللواتي حملتهنّ الأيام على حافة الإنهيار فأمسكن أنفسهنّ من قلوبهنّ ، إلى كل امرأةٍ وقفت وحدها وكأنها جيشٌ كامل .

وإلى الذين حملوا أرواحهم على أكفّهم من أجل الوطن .

أهدي إليكم جميعاً هذه الرواية .

المقدمة

لم أكن أعرف أن للنجاة وجهين حتى نجوتُ من الحرب ، ثم نجوتُ بك .

كنتُ أظنُّ أن الحرب لا تترك فينا مساحةً للحب ، و أننا نحتاجُ إلى سماءٍ آمنة و وطنٍ مستقر ، لكنك كنتَ المعجزة التي انتشلت قلبي من بين أنقاضه ، و مسحت عنه غبار الخوف ، و أنقذته من كل هذا الخراب ، حتى عاد يخفق بك .

ظننتُ لوهلةٍ أن هذه الإبادة ستُبيد ما بقي من مشاعرنا ، و أننا و إن خرجنا منها ، فسنخرج جثثاً تمشي ، لأن من يخرج من النار لا يخرج إلا رماداً .

لكن كلماتك كانت كالهدنة التي تمنح قلبي فرصةً ليهدأ مهما اشتدت لوعة الحرب .

و ها أنا الآن أجلس بجانبك بقلبٍ منتصر بعد عامين و حرب ، أسرحُ بجمالِ عينيكَ البندقيّتين وبخراب هذه المدينة المنهكة ، فأدركُ حقيقة أنني لم أخسر الكثير حين ربحتُكَ يا أنس .

لقد انتصرتُ بك كما ينتصر الناجون بنفسٍ آخر من تحت الركام .

أنظرُ إلى سُمرةِ عينيك وكأنها أعظمُ معركةٍ خضتُها ، معركةٌ سفكت كل مخاوفي ، و أضع رأسي على كتفك و كأنني أرتكئ على وطنٍ كامل لا تهزّه الحروب .

ومن دفء كتفك وسط هذا البرد الذي خلّفته الحرب ، أدركتُ أن قصتنا عبارةٌ عن مقاومة صغيرة تنتصر على الدمار كل يوم .

وهذه الرواية هي حكايتي معك ، وحكاية كل أنسٍ و وطن في هذه المدينة ، بين حبٍ قاوم و قلبٍ نجا ، فالحب في غزة ليس رفاهية ، إنه معركةٌ أخرى ننجو بها أو نستشهد فيها .

عزيزي القارئ :

عندما تبدأ بقراءة هذه الصفحات ، تجنّب إشعال السجائر أو احتساء القهوة ، و احرص على فتح شبابيك الغرفة ، ففي هذه الاوراق ما يكفي من رائحة البارود لتسميم الهواء حولك .

ولا تنسى أن تتفقّد صلابة قلبك قبل أن تتجاوز هذه الصفحة ، و انتبه للغبار المتصاعد من هذه السطور

فأوراقي عُجِنت برماد الخيام، ورائحة العلقم فيها تسبق رائحة الحبر فأنت على وشك ابتلاع حكايةٍ مرّة ، لا حلاوة فيها سوى الصمود

جرعة المرار في هذه الرواية شديدة التركيز ، فاحذر أن تسقط منك دمعةٌ، فيحترق بها الورق ....

ملاحظة هادئة :

قد يربكك سطرٌ ما ، و يوقظ فيك ذكرى لم تُغلق بابها تماماً .

تابع القراءة ولا تلتفت له ، فهذا أثر قلبي .

" في مدينةٍ تُقصف كل يوم...
يُصبح القلبُ عدسةً ، والعدسةُ قلباً "

الفصل الأول

الخطوة الأولى نحو الركام

كان يوماً من أيام الخريف ، استيقظنا على نسمة الصباح الباردة و على خبرٍ شقَّ الصباح نصفين ، نصفٌ يشبهُ وجهاً جديداً للحياة ، و نصفٌ يشبه النهاية .

لم يكن الخبر واضحاً في البداية ، كان مجرّد همسٍ يتنقّل بين البيوت و على أفواه المارّة .

كانت السعادة تُغلّف الرعب الذي يسكن في صدورنا لعدّة ساعاتٍ قليلة ، إلى أن بدأت الحياة بعدّها التنازلي في عيوننا ، وكأن كل شيءٍ في هذه المدينة يستعد للإنطفاء .

كانت الوجوه في الشوارع يسودها فرحٌ مؤقتٌ هشٌّ ممزوجٌ بقلقٍ من المجهول الذي كنا نشعرُ باقتراب خطواته خطوةً بعد خطوة دون أن نملك القدرة على إيقافه .

ما هي إلا بضع ساعاتٍ متأرجحة حتى جاء الصوت الذي كان يشبه زلزالاً يهز الأرض ، أو رعداً يضرب في السماء ، أو ربما شيئاً أشد من ذلك ، كان صوتاً يقسم السماء لنصفين و الأجساد لعدة أنصاف .

في اللحظةِ الأولى ، توقفت خطوات الناس و تجمّدت الكلمات في أفواههم و علت الصرخات و تساقطت البيوت و الأجساد مع تساقط أوراق الخريف و كأن الخريف

قرر أن يسقطهم جميعاً دفعةً واحدة ليصبحوا في سباقِ تساقط لا تعرف فيه من يتساقط أولاً ، أهو الإنسان أم الشجر ، أم البيوت ، أو ربما هذه المدينة كلها .

نظرت ليان بعينيّ كيان التي كانت تجري مكالمتها بذعرٍ لم يسبق أن رأتُه بعينيها من قبل ، عيناها الواسعتان ترتجفان أكثر من رجفة يديها و كأنهما تحاولان استيعاب كل ما يحدث دفعةً واحدة .

و منذ تلك اللحظة صار كل شيء في غزة يُقاس بما بقي منها و ببعض الذكريات التي طالها القصف ، قبل أن نتمكّن حتى من الإحتفاظ بها .

كانت كيان ما تزال تمسك هاتفها بثباتٍ مرتعش وليان تحدّق في وجهها بعينين اتّسعتا خوفاً وهي تقول :

الصوت كان قريباً جداً ، شعرتُ أن الأرض ستنشق تحت قدميّ و تبتلعني ، أين وقع القصف ؟

كيان : إنه في بيت حانون ، عليّ أن أذهب هناك لتغطية الحدث ، فقد اتصل بي سِوار قبل قليل و سيأتي ليصطحبني لنكون فريقاً واحداً في الشمال يغطي الأحداث

ساد الصمت ، حيث كانت ليان تحاول استيعاب فكرة أن أختها الوحيدة ستخرج نحو المكان ذاته الذي خرجت منه الأرواح قبل دقائق .

اقتربت ليان من كيان بخطواتٍ أثقل من قدرة قدميها على قطعها وقالت بصوتٍ متكسّر :

أتذهبين الآن بعد هذا القصف ؟

رفعت كيان رأسها إليها و في عينيها مزيجٌ غريبٌ من الخوف و الإصرار ،

كيان : ليس لدي خيارٌ آخر يا ليان ، يجب علينا أن نكون عين الحقيقة للمدنيين ، ثم لا تنسي أنني صحفية و لن يحدث لي شيء ، لا تقلقي عزيزتي .

قاطعهما طرقٌ سريعٌ على الباب وكأنه يخبرهم أن الوقت أثمن من أن يُهدر في حوار .

التفت كيان وقالت : لا شك أن هذا سِوار

تقدّمت كيان بخطواتٍ ثابتة نحو الباب و فتحته ليدخل شاب في منتصف العشرينات بملامح قلقة و عينان حادّة فقال بصوتٍ جهوري :

"علينا أن نتحرّك حالاً يا كيان... القصف ما زال مستمراً وهناك الكثير من الإصابات ."

لم تحتج كيان إلى أكثر من هذه الجملة ، أغلقت حقيبتها بسرعة، التقطت هاتفها والميكروفون ، ثم التفتت إلى ليان التي كانت تراقب المشهد بصمتٍ يقطّع القلب ، وضعت يدها على كتفها برفقٍ ، وقالت بصوتٍ حاولت أن تجعله ثابتاً :

"سأعود... لا تخافي ."

اتجهت كيان برفقة سِوار إلى موقع الحدث وهما مسرعين ويكتسي ملامحهما القلق .

وما إن لامست قدماها الشارع حتى شعرت أن الهواء تغيّر، و صار أثقل ... لأنه مُحمّلٌ برائحة الدخان و صرخات الناس فقد كانت صوت الانفجارات البعيدة تُرعش القلب ، و الشوارع خالية إلا من سيارات الإسعاف وشلالات الدماء .

كانا يسيران بسرعةٍ تكاد تشبه الركض ، و سِوار يسبقها بخطواتٍ واسعة ، يحمل الكاميرا كأنها سلاحه الوحيد ، وكيان خلفه تشدّ على حقيبتها وتحاول أن تُسكت الارتجاف الخفيف في صدرها ، لم ينظر إليها ، لكنها شعرت أنه يراقبها بطرف عينه ليتأكد أنها ما زالت بخير .

حين وصلا إلى الموقع المقصوف ، كان صوت سيارات الإسعاف يعلو فوق كل شيء.

الناس يركضون ، المسعفون يصرخون ، والغبار يملأ السماء كأنه غيمة لا تريد أن تنقشع .

توقّفت كيان دون أن تشعر فقد كان المشهد أكبر من قدرتها على الإحتمال ، بيوتٌ مهدّمة ، ألعابٌ يكتسيها التراب ، حذاءُ طفلةٍ صغيرة مُغطّى بالدماء بجانبه كسرة خبزٍ مغموسة بذات الدماء ، و على اليمين رجلٌ يجلس على الأرض ويحملُ كيساً أسوداً لوهلةٍ تظنُّ أن ما فيه بقايا من منزله المحطّم ، لكنه في الحقيقة يجمع بقايا أبنائه .

رفع سِوار الكاميرا فوراً ، بينما فتحت كيان الميكروفون وقالت بصوتٍ مرتجف لكنه ثابت :

" نحن الآن في موقع القصف...

والدمار هنا لا يشبه أي شيء رأيناه من قبل ."

كانت عيناها معلّقتين على امرأة تحفر بيديها بين الركام وتصرخ باسم أطفالها كأنها تنادي على روحها .

اقتربت كيان منها لتلتفت المرأة وتقول : **أولادي ماتوا قبل ما ياكلوا** .

تجمّدت العروق بوجه كيان و ارتجف صوتها من هول ما سمعت .

و من بين الركام ، ظهر آدم ، شاب عشريني يرتدي سُترة الهلال الأحمر ، و وجهه مطليٌّ بطبقةٍ رقيقةٍ من التراب ، لكنّ بشرته البيضاء كانت تلمع من تحت الرماد .

كان يحمل بين ذراعيه جسداً صغيراً و يمسحُ الغبار عن وجهه بيده المرتجفة ، ثم يصرخ للمسعفين خلفه : أحضروا النقالة ، مازال يتنفّس .

قال سِوار : إنه آدم ، أشجع مسعفٍ في المنطقة .

ركض سِوار باتجاه آدم متخطياً الحطام ليلتقط بكاميرته تفاصيل تلك اللحظات الحرجة، وكانت كيان تتبعه دون تردد، ممسكةً بالميكروفون بقبضة حاولت جعلها ثابته رغم ارتعاش جسدها. كانت الكاميرا توثق وجوه المصابين، الدماء الممزوجة بالتراب ، وعيون الأطفال التي تفتش عن أمهاتهم وسط الفوضى .

صوتها يرتجف ويثور في آن واحد، ينقل للعالم أنفاس الضحايا و قلوب الأطفال التي تبحث عن سقفٍ آمن. كان سِوار يصور، لكن عينه الأخرى لم تغفل عنها لثانية ، كان يراقب خطواتها ، أنفاسها ، وحتى طريقة شدّها على قميصها من الخوف ، كان حريصاً على ألا تفصلهما خطوة واحدة .

وفجأة ، انشقّت السماء ، صوت صفير مرعب ومألوف ، لكنه هذه المرة لم يكن بعيداً ، كان يمزق الهواء فوق رؤوسهم مباشرة .

"حزام ناري! انبطحوا!" صرخ آدم محوّلاً جسده إلى درع فوق أحد الأطفال المصابين .

قبل أن تصدر كيان أي رد فعل ، وقبل أن تلتفت لتفهم من أين يأتي الموت ، شعرت باصطدام عنيف و بشيءٍ يسحبها من يدها ، لم يكن عصف الانفجار، بل كان سِوار. ألقى بكاميرته ـــأثمن ما يملكـــ واندفع نحوها كمن يحمي روحه من الاقتلاع ، ساحباً إياها بقوة هائلة خلف بقايا جدار إسمنتي صامد .

وفي تلك الأجزاء من الثانية ، ضرب الصاروخ الأول .

دوى انفجار مرعب زلزل الأرض وجعلها تمور كالسفينة في بحر هائج .

فتحت كيان عينيها ببطء وسط الظلام الدامس للغبار، حاولت التنفس بصعوبة وقالت بصوت مبحوح ومذعور: "سِوار... سِوار، أأنت بخير؟"

تأوّه بألم مكتوم وهو يتحرك ببطء ليزيح بعض الحجارة التي سقطت على كتفه، ثم نظر إلى وجهها وقال بأنفاس متلاحقة وهو يتفقد وجهها وعينيها: "أنا بخير... أنتِ؟ هل أصابكِ شيء؟ أخبريني أنكِ بخير؟"

كان صوته مبحوحاً يحمل خوفاً لم يستطع إخفاءه .

رغماً عن الموت والرماد وأصوات القصف البعيدة ، شعرت كيان بدفء غريب يسري في أطرافها ، أمانٌ لم تألفه من قبل وُلِدَ من رحم الرعب .

فبمجرد سماع صوتها أعاد لسِوار القدرة على التنفس ، و مجرد سماع صوته جعل كيان تشعر أن العالم ـ رغم كل شيء ـ لم يسقط بالكامل .

جلسا خلف الجدار الإسمنتي يلتقطان أنفاسهما ، و عيناهما تصبُّ على شلال الدماء ،

لتسأله كيان بمرارة : لماذا يصرّ الناس على خوض معارك يعرفون أنهم سيخسرون فيها الكثير ؟

فتنهد سِوار و قال : لأن الإنسان يا كيان لا يهرب من قدرٍ كُتب عليه ، حتى لو عرف أن الطريق فيه مبللٌ بالخسارات ، فبعضُ الدروب تُفتَح وحدها تحت الأقدام .

لتردَّ كيان : المعارك لا تُخاض بالشجاعة وحدها ، إنها تُخاض بالخوف أيضاً ...

الخوف من أن نفقد من نحب ، أو أن نفقد أنفسنا إن لم نقاتل ، فنسقط في متاهة التفكير ، نخاف أن نتوقف فنخسر ما تبقى ، و نخاف أن نكمل فنخسر ما مضى .

ليسترسل سِوار حديثه :

إن أسوأ ما في الحروب يا كيان أنها لا تمنحنا خياراً نظيفاً ولا نهاية عادلة ، إما أن نؤذي ، أو أن نؤذى ، أي نُكمل ونحن مُثقلين ، أو نتوقف مُنهكين ، و كلاهما خسارةٌ بطريقتها الخاصة ، و الإنتصار فيها من يبقى حيّاً حتى النهاية .

حتى المنتصر لا يخرج من الحرب كاملاً ، يخرجُ بنقصٍ ما ، ربما بنقص منزله ، أو صديقه ، أو ربما بنقص نفسه الذي خسرها وهو يحاول أن يكسب .

رفعت كيان عينيها نحوه ، كانت تريد أن تقول شيئاً ، فرغم كل التعب الذي اكتسى وجهه و الغبار الذي استقر على جبينه ، شدّها إليه نظرة جعلتها ترتبك ، لاحظ سِوار ارتباكها، فخفض عينيه للحظة ، ثم قال بصوتٍ خافتٍ يكاد يضيع بين صفارات الإسعاف :

"أهم شيء ... أنك بخير"

لم يهدأ المكان بعد الأنفجار و كأن استُبدِلَ بالغبار

بدأت الناس بالتوجه إلى مناطق أخرى لم يطلها القصف بعد

فقال سِوار : علينا أن نغادر الآن... المكان لم يعد آمناً

كانت تحاول أن تستعيد القدرة على الحركة بعد أن شلها الرعب

سارا معاً بين الركام و حين ابتعدا عن موقع القصف ، بدأ الهواء يستعيد شيئاً من خفته ، لكن قلب كيان لم يستعد شيئاً بعد .

كانت تمشي بصمت ، وسِوار يسير بجانبها دون أن يترك بينها وبينه أكثر من خطوة واحدة .

وحين ظهرت ملامح الحيّ الذي تسكنه كيان، شعرت أن قدميها تسرعان دون إرادة .

حين وصلا إلى باب منزلها ، كانت ليان واقفة هناك تنتظرها، كان وجهها شاحباً ، وعيناها معلّقتان على الطريق .

وما إن رأت كيان حتى انفرطت دموعها دفعة واحدة، اندفعت نحوها لتعانقها و هي تردد الحمد لله .

ابتسم سِوار ثم قال : عليّ أن أغادر الآن، اعتنِ بنفسك جيداً .

دخلت كيان إلى غرفتها و خلدت إلى النوم

في اليوم التالي كان الصباح يشبه الليل، لا ضوء حقيقي بعد ليلةٍ ثقيلةٍ من القصف .

استيقظت ليان على صوت طرقٍ خفيف على الباب

فتحت الباب لتجد سِوار واقفاً هناك بارتباك

قال بصوتٍ خافت:

" هل كيان بخير؟ أردتُ فقط أن أطمئن عليها "

التفتت ليان نحو الداخل، ثم نحو عينيه اللتان تفضحان ما في قلبه ثم دعته للدخول

خرجت كيان لاستقباله بعد أن أخبرتها ليان لكن قلبها سبق خطواتها ، أما ملامحها كانت ما تزال تحمل أثر الليل

قال لها:

"جئتُ فقط لأتأكد أن ليلة الأمس لم تترك فيكِ شيئاً مؤذياً "

نظرت إليه، نظرة طويلة، فيها امتنانٌ خجول و كان سِوار يبادلها النظرة ذاتها

أما ليان فكانت تقف خلفهما تراقب المشهد بصمتٍ ذكي

لم يكد الصباح يلتقط أنفاسه بعد ليلةٍ ثقيلة، حتى تم إعلان الحصار الشامل على المدينة من غذاء و دواء و ماء و عاد صوت السماء ينهار من جديد

قصفٌ أشدّ و أثقل .

ارتجّت النوافذ، واهتزّ البيت تحت أقدام الجميع وارتفع الدخان في الأفق كستارٍ أسود يبتلع الضوء .

هرع الاثنين إلى مكان القصف دون تفكير ليلتقيا بآدم

.قال آدم وهو يلتقط أنفاسه :

"الاستهداف هذه المرة مباشر... ضربوا طواقم الإنقاذ في الشمال

لم يعد هناك عددٌ كافٍ من المسعفين فبعضهم ترك الشمال والبعض تم استهدافه و لدينا نقصٌ حادٌ الآن .

اتصلت كيان بليان لتخبرها بما حدث فردّت ليان :

كيان... إذا كان هناك نقص في المسعفين، يمكنني أن أتطوّع ، أعرف كيف أتعامل مع الإصابات الأساسية و كيف أضمد الجروح و أخيطها و أوقف النزيف .

لعلّ خبرتي في دراستي تنقذ الوضع الحالي .

تجمّدت ملامح كيان حين سقطت هذه الكلمات على مسمعها ، ردّت كيان باستسلام : حسناً سأرسل لكِ موقع الإستهداف .

أبجديةُ العشقِ في زمنِ النزيف

الفصل الثاني

عشقٌ وُلِدَ من رحمِ المدافع

كم تغيّرت آلام الحرب حين لامس صوتك ذُعري ، وكم مرّ من الوجع قبل أن أتعلّم كيف أحبّك .

حبي لك هو الشيء الوحيد الذي لم يسقط تحت القصف يا أنس ، وكم من مدينة سقطت في داخلي قبل أن أتعلم كيف أقول اسمك دون خوف .

لربما فهمت لماذا أكتب لك الآن ...

سأعود بك إلى تلك اللحظة التي انحنى فيها العالم على كتف كيان و وضعها في اختبارٍ بين قلبها الذي يخشى على أختها الوحيدة و إنسانيتها التي تخشى أن تخونها .

أرسلت لها الموقع و يداها ترتجفان فنظر سِوار إليها و قال بصوتٍ منخفض : هل انتِ متأكدة من هذا ؟ ليان ليست معتادة على هذا النوع من الجحيم .

أجابت كيان و هي تحدّق في الدخان الذي كان يتزايد مع تتالي القصف : لم يعد هناك أحدٌ معتادٌ على شيء ، كلنا نتعلم النجاة من الخوف .

وصلت ليان بعد نصف ساعة تركض بين الركام وكانت تحمل حقيبة صغيرة فيها أدوات الإسعافات البسيطة و تحمل في قلبها خوفاً ممزوجاً بالشجاعة .

اقتربت من آدم الذي كان يضغط على جرحٍ في كتف أحد المصابين فقالت له : أخبرني ماذا أستطيع أن أفعل؟

استغرب آدم من وجود فتاةٍ صغيرة رقيقة ببشرة بيضاء و عينان خضراوتان لا تشبه إلا الحياة في مكانٍ لا يشبه إلا الموت فقال لها : من انتِ ؟

أجابته : اسمي ليان عمري واحد وعشرون عاماً و أدرس الطب البشري في الجامعة في السنة الثالثة و جئت لأنني سمعت بوجود نقصٍ حاد في المسعفين .

استرسلت قائلةً : أعرف كيف أوقف النزيف و لدي خبرة في خياطة الجروح و تلقيت دورة بتعلم الإسعافات الأولية .

قال لها : حسناً ، علّقي المحلول للمرأة المصابة هناك و ضمدي جراحها .

كان المستشفى يعجّ بالصرخات والركض والدماء التي تجري بلا توقف ، وكانت ليان تعمل بجانب آدم الذي تلقى خبراً صاعقاً عن تضييق الحصار و شح الأدوات الطبيّة و الأدوية .

فجأة تدخل امرأةٌ منهارة بوجهٍ شاحب و هي تبكي و تبحث بعينيها عن روحٍ لا عن جسد

لتصرخ بصوتٍ مزّق القلوب إلى أشلاء :

" يوسف ابني عمره 7 سنين، شعره كيرلي وأبيضاني وحلو، وينه حبيبي ؟ "

كانت تصرخ بصوتٍ يشبه سقوط مدينة كاملة في صدر أم واحدة .

كانت تبحث عن يوسف ، لا عن جثة يوسف .

اقترب منها الطبيب وهو يحاول أن يفهم شيئاً، كيف يستطيع استيعاب أن زوجته تبحث عن طفله !

كان يتنفس القهر بدلاً من الهواء .

ذهبوا ليتأكدوا من الجثة التي كانت بمواصفات يوسف ، قال الطبيب بصوتٍ منكسر قبل أن يخرج من الغرفة : يوسف ... .

لقد غادر يوسف ، بشعره الكيرلي و بشرته البيضاء ، لم يستطع هذا الجمال تحمّل الحرب .

كانت زوجته تبكي وتصرخ فقد انتُزِعَ قلبها من صدرها .

لم يستطع أحدٌ قول أي شيء لتهدئة قلوبهم ، حتى آدم نفسه الذي رأى الموت بأشكاله كلها ، علقت الكلمات في حلقه.

كانت ليان تقف خلفه ، تمسك الضمادات ، حتى الضمادات كانت ترتجف من هول المشهد ، انفجرت الدموع من عيني ليان و وضعت يدها على فمها و بدأت تبكي بصوتٍ مكتوم عن جميع الأمهات و كأنها تخاف أن يسمعها القهر .

اقترب آدم و ربت على كتفها محاولاً تهدئتها ، ثم ضغط على كتفها قليلاً و أومأ برأسه ليمنحها ثباتاً

لم تمضِ ساعات حتى انقطع كل شيء.

الاتصالات ، الإنترنت ، الإذاعات ، الطعام و الشراب .

أغلقوا الحياة على أكثر من مليوني روح وتركوا لهم طريقاً وحيداً إلى السماء.

صار الموت هو السبيل الوحيد للنجاة ، بسبب انقطاع الاتصالات لم تعد فرق الإنقاذ تدري بمكان القصف ، الذي يُصاب يبقى ينزف حتى يصل إليه أحد و غالباً لم يصل أحد ...

تصل بعد أن يكون الركام قد ابتلع الأرواح .

المخازن فرغت ، الخبز أصبح ذكرى أو أمنية للكثير ، الغاز نفذ ، البنزين نفذ ، معظم سيارات الإسعاف لم تستطع العمل ، حتى الماء انقطع و صار الناس يملؤون عبواتهم من مياه غير صالحة للشرب .

نزحت العائلات إلى خيامٍ من قماش ، لا تقي برداً ولا خرّاً و لا خوفاً .

خيامٌ أشبه بقبورٍ مفتوحة تنتظر الدور القادم ، اسماً جديداً يُضاف إلى قافلة الراحلين.

وكانت المستشفيات مثل المستشفى الذي تعمل فيه ليان، تتحول إلى عالمٍ آخر،

عالمٍ بلا أدوات ، بلا دواء ، بلا وقت ، يحاول المنقذين إنقاذ ما يمكن إنقاذه .

جاء أحد الأطفال المصابين إلى المستشفى صباحاً و لديه جروح تطلّب خياطة مستعجلة ،

ولا يوجد في المستشفى أي نوع من أنواع التخدير ، كان الطفل يبكي من شدة الألم أثناء تخييط جرحه دون تخدير وهو يرتّل آيات القرآن الكريم ، يا لقوة إيمانه و يا لضعفنا أمامه.

كانت كيان و سِوار يصوّرون المشهد بأيادٍ ترتجف رغم ثبات صوته .

بعد عدة أيام تم قصف المشفى، خمسمائة شخص رحلوا إلى السماء معاً .

الأشلاء تتطاير في كل مكان ، الصراخ يعلو فوق صوت القصف .

ما قُصِفَ في ذاك اليوم كان إنسانيّتنا ،جميع من كان هناك رحل و تركنا وحدنا نصارعُ الخوف ، يا لوحدنا.

هرعت كيان مع سِوار لتوثيق الحدث من الناجين ، وصلت كيان و بدأت تصف ما شاهدت أمام الكاميرا : المشهد يتجاوز كوابيس البشرية.. ساحة المستشفى تحولت إلى بركة ضخمة من الدماء، والأشلاء متناثرة على الأشجار والجدران ، هذه ليست مجرد غارة، هذه مجزرة علنية مُسحت فيها عائلات كاملة من السجلات المدنية وهي تبحث عن الأمان .

فقال أحد الممرضين في قسم الطوارئ : لم نعد نجمع جثامين، كنا نجمع أشلاءً في أكياس بلاستيكية.. معظم الضحايا أطفال كانوا يلعبون في الساحة .

أما أحد الأطباء فقال : المستشفى كان المكان الذي اعتقد الجميع أنه آمن.. الآن لم يعد هناك مكان آمن في غزة .

و على يمين المشفى كان هناك أم ثكلى ، فتقدمت كيان نحوها فقالت المرأة :

أولادي كانوا بيلعبوا قدامي قبل ثواني، فجأة عتّمت الدنيا وراها انفجار هز الأرض، وما لقيت منهم إلا أواعيهم وِشِقف من لحمهم ....

تقدم رجلٌ مسن نحو الكاميرا و قال : شردنا من الموت ببيوتنا وإجينا عالمستشفى لأننا حكينا الصليب الأحمر والمؤسسات الدولية بتحميه، بس الموت لحقنا لهان !

وسط شهادات الناجين التي كانت كيان تجمعها، وبين أصوات الأمهات التي لا تشبه أي صوت آخر، وجدتُ شيئاً في داخلي يتحرّك بعيداً عن الحرب، شيئاً يعود إليك يا أنس، عند تلك اللحظة التي كانت الجدران تتداعى خارجاً ويثور الغبار ليعتم الرؤية، لم يكن ثمة ما هو أشدّ وضوحاً في رأسي سوى وجهك، كنتُ أظن أن لا شيء يمكن أن ينجو من هذا الخراب ، لكنني نجوتُ بعينيك يا أنس ، فكلما اهتزت الأرض تحت أقدامي، اعتصمتُ بذكراك

كل ما أعرفه أن قلبي اختارك يا أنس قبل أن أعرف معنى الاختيار ، فأنت المأمن الوحيد الذي شُيّد لقلبي .

لكن طنين الأذن الغاضب، ومذاق الغبار الذي ملأ حلقي، أعاداني قسراً من طيف عينيك إلى جحيم الحرب و الفقد .

تابعت كيان تغطية الحدث ومقابلة الناجين دموعها تنساب على وجنتيها ،

علا صوت أحد النازحين في أروقة المشفى و قال : الوضع كان زي كأنه يوم القيامة، النار ولعت في كل مكان، والناس بتجري وهي بتنحرق وبتصرخ 'يا الله.. يا الله !

بدأ الناس يجمعون الأشلاء ومن كثرة الشهداء و شدة الحصار لم يتبق لو كفنٌ واحد ، فأصبحت الناس تجمع أشلاء عائلاتهم بأكياس بلاستيكية !

حينها عرفنا أنه لا يوجد بقعة في غزة محمية و كل شبرٍ يطاله القصف !

بدأت الناس تختار أماكن فارغة وتنصب الخيام بعد أن قُصِفَت بيوتهم .

لم تكن الخيمة بيتاً، كانت فكرةً هشة عن الأمان.

قطعة قماشٍ خفيفة تقف عاجزة أمام قسوة العالم، تئنّ مع كل هبة ريح وكأنها تتوسل للريح ألا تطير، وتستسلم للبرد ليختدر أطرافنا في الشتاء، بينما تتحول في الصيف إلى أتونٍ يبتلع أكسجيننا .

في الخيمة، تسقط كل أوهام الخصوصية و تصبح الأنفاس مشتركة، والهمسات مسموعة للجميع، حتى البكاء يصير واجباً تأجيله حتى لا يجرح الجيران.

الأرض تحتنا ترابٌ متمرد ، يتحول إلى غبارٍ يملأ ألسنتنا وطعامنا في الجفاف، وإلى طينٍ يبتلع أقدامنا وأحلامنا في لحظات المطر .

و حين يشتد المطرتتشابه الخيام من الخارج كأنها شواهد قبورٍ بيضاء زُرعت على عجل، لكنها من الداخل تعجّ بأرواحٍ تحاول التشبث بالحياة.

حبل غسيل يربط بين وتدين، كوب شاي دافئ يصارع البرد، وصور عائلية عُلّقت على عمود خشبٍ مائل ،

إنها محاولة إنسانية أليمة لصناعة **"وطن"** من قماش ومسامير!

و إن أكثر ما يؤلم في الحكاية هو خرير المطر على البلاستيك، صفير الهواء في الفتحات، وطقطقة حبال الخيمة.

و في لحظةٍ غادرة ، تم قصف الخيام ...

لم تكتفِ النيران بالتهام القماش الهش، بل تحولت الخيام في لحظات إلى ألسنةٍ من جهنم؛ وفي غفلةٍ من العتمة، انهار الساتر الترابي ليطمر أجساداً كل ما طلبتْه كان مأوىً، فصار الرملُ كفنهم قبل أن يُتاح لهم حتى وداعُ الحياة ، وارتدم الرملُ فوق النائمين ، ليموتوا مرتين: مرةً بالنار التي التهمت مأواهم، ومرةً بالتراب الذي غمر أنفاسهم .

لم تكن مجزرة عادية ، رأيت شخصاً يناجي الناس وهو يحترق ، احترق حتى الموت ....

إلى الآن ما تزال صورته في رأسي، ذاك الشاب الوسيم شعبان ابن العشرين ربيعاً ، طالب الهندسة و حافظٌ لكتاب الله ، احترق مع والدته في خيمتهما .

تتالت المجازر بشتى أنواعها و بقي الموت واحداً.

لجأت بعض الناس إلى المدارس لربما تكون أكثر أماناً من غيرها

قرابة الأربعٌ و عشرين شخصاً في غرفةٍ واحدة !

و تم قصف المدرسة أيضاً ...

امتصّ الدخان الألوان من الغرفة، وغلّف كل شيء بسوادٍ حداديّ.

الطاولة التي جمعتنا بالأمس صارت شظايا، والستائر التي كانت تبتسم للريح احترقت بصمت.

لم نصرخ، كان الحزن أكبر من الصراخ ، كنا فقط ننظر إلى المنازل والمكارس و المشافي وهي تتحول أمام أعيننا إلى ذكريات من تراب

حتى المساجد التي هي مقدسات دينية لم تنجُ من القصف ...

سقطت المئذنةُ جريحةً ، واختنق صوت الأذان وسط دوي الإنفجارات ، واختلطت رائحة البخور والمسك برائحة البارود والدخان و الموت .

كانت المآذن تتهاوى نحو الأرض كأنها تبكي أمةً، و بدأ المطر بالهطول و كأن السماء أشفقت على المساجد أن تبقى وحدها شاهدةً على كل هذا الهوان .

كانت كيان توثق كل هذا الدمار بقلبها الهش و سِوار بجانبها حتى جاءت اللحظة التي وثقوا فيها استهداف زميلهم أيمن !

مع اتساع دائرة الموت ومع اشتداد القصف، لم يعد الصحفيون مجرد شهودٍ على الحرب... صاروا جزءاً من قائمة الاستهداف.

وفي أحد الأيام، وبينما كان الجميع يحاول توثيق ما تبقّى من الضوء، استُهدف زميلٌ لهم وهو في طريقه إلى المستشفى أمام ذات المستشفى ...

جاءت روحٌ و سُلِبت أخرى

لم يصل أيمن إلى غرفة الولادة...

وصلت روحه قبل جسده، ووصل الخبر قبل أن يصل هو.

سقط وهو يحاول أن يرى الحياة التي انتظرها تسعة أشهر، فسُلبت منه اللحظة التي يحلم بها كل أب، وبقيت زوجته تحتضن طفلاً لا يعرف أن أباه رحل وهو يركض نحوه ، لتصبح ذكرى ميلاده هي تاريخ استشهاد والده !

كم هي الحياة قاسية ، لم تمنح الأب رؤية ابنه أو حق تسميته ، ليحمل الابن نفس اسم والده ليبقى أيمن هو الذكرى الوحيدة من والده أيمن !

كانت كيان تبكي بحرقة وهي تُذيع الخبر و صوتها كان يتكسّر مثل زجاجٍ تحت قدم الحرب.

بعد أن انتهت اقترب منها سِوار خطوةً واحدة فقط، خطوةٌ كانت كافية ليشعر أن قلبه يضيق، وأن غصّةً حارقة ترتفع في حلقه كلما رأى دمعةً تنحدر على خدّها وقال بصوتٍ منخفض :

كيان لا تبكي ، دموعك تؤلمني أكثر من القصف .

رفعت رأسها نحوه باستغرابٍ ممزوجٍ بارتباك ، وفي عينيها حزنٌ يلمع تحت طبقة الغبار، فتنفّس سِوار بعمقٍ كأنّه يستجمع شجاعته الأخيرة، ثم قال:"لا أعرف كيف أشرح لكِ ما يحدث لي حين تبكين...

لكنّي أعرف شيئاً واحداً فقط:

أنّ قلبي يضيق عليكِ، وأنّ الحرب كلّها تصبح أهون من رؤية دمعةٍ واحدة في عينيكِ.

وإن كان عليّ أن أقولها قبل أن يسرقنا هذا الجحيم...

فأنا أحبّكِ يا كيان."

تجمّدت كيان للحظة ، ارتجفت أنفاسها، وارتبكت نظراتها، ثم قالت بصوتٍ خافتٍ يكاد يضيع بين هدير الحرب:"سِوار... أنا أيضاً... أحبّك."

لكنها أغلقت عينيها بلحظة وعيٍ ثم أردفت قائلةً :

لكنّ الحرب لا تمنحنا وقتاً لنحبّ كما يجب...

دعنا ننتظر أن تنتهي، هذه الإبادة

فأجابها سِوار : انا على موعدٍ مع وطنٍ صغير ينتظر أن يُبنى بعد النجاة

قصةُ حبٍّ لا تُنقذها الإسعافات

الفصل الثالث

نبضٌ تحت الركام

في صباح يومٍ رمادي ، كانت السماء أثقل من أن تُرفع، والأرض أخطر من أن تُخطى، حتى بدأت الدول تتحدّث عنّا كأننا خبرٌ عاجل لا ينتهي .

كان الوضع ينهار أمام أعيننا، شعرتُ أن العالم كلّه يراقب هذا الخراب، ينتظر شيئًا يشبه المعجزة... قبل أن يُعلنوا هدنة في نوفمبر، هدنة قصيرة لا تكفي لالتقاط الأنفاس ، لكنها أملٌ لإيقاف حربٍ كاملة .

بين خيام النزوح ، ضاق بي كل شيء، إلا عيناك يا أنس ...

في ذاك الصباح قررتُ أن أجمع الأطفال أمام خيمتي في ساحةٍ صغيرة و أروي لهم قصصاً لعلها تُنسيهم هول هذه الإبادة .

بدأتُ بالتعرّف على أسمائهم و هواياتهم و أحلامهم

ما اعتصر قلبي حقاً أن أغلب أحلامهم كانت كسرو خبزٍ صغيرة أو العودة إلى منازلهم المهدّمة .

جلستُ بين الأطفال، وقلت لهم:

كان يا ما كان، رجلٌ يبحث عن بيتٍ يؤويه مع عائلته ،

و لم ينجح لأن الجميع رفضوا تأجيره لأن لديه ثمانية أولاد .

طلب الرجل من زوجته أن تأخذ معها سبعة من أبنائهم إلى المقبرة لتزور والدها المتوفي ، و ذهب هو و ابنه البكر ليستأجرا بيتاً .

سأله المالك : كم ولداً عندك ؟

أجابه : ثمانية، سبعة في المقبرة مع أمهم و هذا ثامنهم .

كتب العقد مع المالك و التفت لابنه و قال له : أرأيت يا بني ؟؟

لا داعي للكذب ، فقط عليك اختيار الكلمات المناسبة .

كبر الولد و أصبح سياسيّاً مرموقاً.

التفت إليهم و سألتهم :

"هل تتفقون مع الأب عندما قال "لا داعي للكذب، فقط اختر الكلمات المناسبة؟ أم أن ما فعله هو نوع آخر من الكذب؟ "

قال لي أحمد ذو السبع سنوات : أظن أنه قال الحقيقة و لم يكذب لكن صاحب المنزل لم يسأل.

أما جوري أجابت : لقد قال حقيقةً مُغلّفة بالكذب.

لكل طفلٍ منهم كان له رأيٌ مختلف لكن الجميل أنهم أدركوا ذكاء الكلمة التي يجب أن تُقال .

انهيت الحكاية و النقاش و ذهبت للكفاح على الطوابير ....

فقد تقسّمت أيامنا إلى طوابير لا تنتهي ، طابورٌ للماء المالح، وآخر لشحن خيط من الضوء في هواتفنا، وطابورٌ ثالث لنحظى بما تبقى من خبزٍ أشبه بالحلم .

يمرّ الوقت ثقيلاً وأنت واقفٌ تتأمل وجوه الغرباء حولك، فتجد في عيونهم نفس الذهول: كيف هبطت بنا الحياة من سعة بيوتنا ودفئها إلى ساعات إنتظار لمستلزمات الإنسان الطبيعية !

كانت الطوابير الممتدة أمام ألواح الطاقة الشمسية محاولة بائسة للتمسك بأطراف العالم الخارجي

أما وفي طابور الخبز، تبدو الخسارة أكثر وضوحاً ، فالانتظار لا ينهك الأجساد فحسب، يلتهم الكبرياء ببطء أيضاً ، تنتظر الناس كل النهار لتحصل على ما تيسر من كسراتِ الخبز أو سلةِ طعامٍ شحيحة ، فتتقاسمها العائلة و كأنها تزن يومها بالغرامات ، فتُبتَلع الغصة قبل اللقمة .

كل شيء بدا معلّقًا في السماء: القصف، الأخبار، الخوف، وحتى الأمل الذي لم يعد يعرف أين يقف.

كانت الوجوه في المخيم تُشبه بعضها؛ كلها شاحبة، كلها متعبة، الناس يتهامسون أكثر مما يتحدثون ، فلا طاقة للكلام في ظل هذه المجاعة !

و كلما مرت طائرة في السماء تحمل بين جنحيها الموت ، ننظر في عيون بعضنا وكأنها النظرة الأخيرة .

وكلما سقط صاروخ في المدينة ، نبدأ بعد المسافة بيننا و بين الموت .

في الليل ، كانت الخيام ترتجف مع كل ارتجافة في الأرض، وهي مدركة أن الهدنة التي يتحدثون عنها ليست سوى محاولة لتهدئة قلب يضرب تحت النار .

و لم يكن أحدٌ من الناس يثق بشيء ، لا بالشعوب و لا الحكّام ، ولا حتى بالوعود التي تأتي من خلف البحار .

كانت الليالي تشبه الكوابيس ، الناجي من القصف يخرج وهو فاقدٌ أحد أعضائه .

في أحد الصباحات سألني أحد الأطفال: "لماذا تبدأ الحرب يا وطن؟"

فقلت له: تبدأ الحرب حين يظنّ القوي أنّه قادرٌ على ابتلاع العالم، وحين يظنّ الضعيف أنّه لا يملك طريقًا آخر غير المقاومة.

القوي يدخل الحرب وهو يعتقد أنّها معركة قصيرة، وأنّ الأرض ستلين تحت قدميه، وأنّ الناس سينحنون أمام صوت مدفعه العالي.

والضعيف يدخلها وهو يعتقد أنّ الصمت سيجعله يخسر آخر ما تبقّى من بيته وروحه وكرامته.

رفعت جوري صوتها و قالت :

وإذا كانت الحرب هكذا... فلماذا يقبل القوي بالهدنة ؟ ولماذا يقبل بها الضعيف ؟

لأن القوي يكتشف متأخراً أنّ الحرب أكبر من قدراته وأنّ القوة وحدها لا تكفي لإسكات شعبٍ كامل، ولا لإطفاء مدينةٍ تحترق ولا تموت .

القوي يقبل الهدنة حين يرى أنّ حساباته لم تكن دقيقة، وأنّ النار التي أشعلها امتدّت أبعد مما أراد، وأنّ الحرب ليست لعبةً يمكن إنهاؤها بقرارٍ واحد.

أما الضعيف... فيقبل الهدنة لأنه يريد أن يعيش .

يقبلها لأنّ البيوت انتهت، والقلوب تكسّرت، ولأنّ الأطفال يحتاجون يوماً واحداً بلا خوف، ولو كان هذا اليوم مُعلّقاً بخيطٍ من السياسة.

ثم نظرتُ إليهم جميعاً و تابعت كلامي : القوي يقبل الهدنة ليستريح...

والضعيف يقبل الهدنة ليعيش.

القوي يرى الهدنة فرصةً لإعادة ترتيب جيشه...

والضعيف يراها فرصةً لإعادة ترتيب روحه .

القوي يحسب الهدنة بالأرقام...

والضعيف يحسبها بالأنفاس .

ثم قلت لهم:

لهذا... الهدنة ليست انتصاراً لأحد.

الهدنة مجرّد استراحة قصيرة بين وجعين .

انتشر الخبر في المخيم كشرارةٍ صغيرة: الهدنة ستبدأ بعد أيام.

لكن بدل أن تهدأ السماء، اشتعلت أكثر، كأنّ الحرب شعرت بالإهانة من فكرة التوقّف.

صار القصف أقرب، أثقل، أسرع، كأنّ الطائرات تريد أن تُنهي ما تبقّى قبل أن تُجبر على الصمت سبعة أيام فقط.

كل ضربة كانت تهزّ الخيام، وتُسقط الغبار فوق رؤوس الأطفال، وتُذكّرنا بأنّ الهدنة ليست سلاماً ، بل مهلة قصيرة بين موتين .

كلما اقترب موعد الهدنة، ازداد القصف شراسةً، كأنّ الحرب تُقاوم فكرة أن تُحبس داخل سبعة أيام من الصمت.

في الليل، لم يكن الليل ليلًا؛ كان كتلةً من الضوء الأحمر، وانفجاراتٍ متتابعة، وصوتًا يشبه سقوط السماء قطعةً قطعة.

كنتُ أسمع الأطفال يبكون، والنساء يصرخن، والرجال يركضون نحو أماكن الضربات ليروا إن كان أحدٌ قد نجا .

كانت كيان تتنقل بين الناجين و مواقع القصف برفقة سِوار

أما آدم فكان يقوم بعمله مع ليان على أكمل وجه ، يحاولون إنقاذ الحياة من قلب الموت .

يركضان بين الجرحى كأنّهما يحاولان الإمساك بالزمن قبل أن يفلت من أيديهما.

كانت غرفة الطوارئ تكتظ بالجرحى ، وليان تقف قرب سريرٍ حديدي ، و يداها تتحركان بثباتٍ و خفّة ، و آدم يقف في الجهة الأخرى أمام السرير الذي بجانبها يراقبها .

قال آدم وهو يفتح ضمادةً جديدة :

النزيف لا يتوقف ، أظنّنا بحاجة إلى ضغطٍ أعلى أو خياطةٍ أسرع .

رفعت ليان رأسها نحوه، وقالت بثقةٍ هادئة :

الضغط وحده لن ينفع ، الجرح قريب من الشريان، ولو خيطناه الآن سنحبس النزيف داخلياً .

علينا أولاً أن نُخفّف التورّم، ثم نُعيد تقييم العمق .

رد آدم بصوتٍ خافت :

"لم أفكّر في ذلك ، كنتُ أظنّ أن السرعة أهمّ من كل شيء .

ابتسمت ليان ابتسامة صغيرة، وقالت :

السرعة تُنقذ، نعم ، لكن التفكير يُنقذ أكثر.

الطب ليس سباقاً، بل قراءة دقيقة لجسدٍ يحاول أن يقول شيئاً .

نظر إليها آدم طويلًا، ثم قال متعجّباً :

أنتِ تقرئين الجسد كما لو أنّه كتاب !

أجابت دون أن ترفع عينيها عن الجرح :

كل نبضة، كل رعشة، كل تغيّر في اللون، كل صرخة ، الجسد لا يكذب يا آدم كلها رسائل ، نحن فقط نحتاج أن نفهم لغته .

جاء طفلٌ بعمر العشر سنوات تقريباً مصاب بشظية في فخذه ، كان الجرح ينزف بغزارة، والمستشفى ينفد منه المخدر كلياً .

وكانت ليان تقف فوق رأسه تُعاين الجرح .

اقترب آدم منها بقلق وقال وهو يحاول سحب الأدوات من يدها :

ليان! ابتعدي، الجرح عميق والطفل سيصرخ من الألم ولن يحتمل المشرط بدون مخدر، دعيني أحاول ربط الشريان سريعاً .

رفضت ليان أن تتنحى، ونظرت إلى آدم بثبات غير متوقع وسط هذا الجحيم .

التفتت للطفل المذعور، وبدل أن تبدأ بالقطع، أخرجت من جيبها ساعة يد قديمة تكتك بصوت مرتفع، وضعتها في يد الطفل الصغير وقالت له بنبرة دافئة وواثقة:

يا بطل، هذه الساعة سحرية ، و أريدك أن تركز في صوت دقاتها وتعد معي حتى رقم عشرين ، ثم تسمعني ما حفظت من آيات قرآنية ، إن وصلت لـ عشرين دون أن تتوقف عن العد، ثم قلت الآيات التي تحفظها دون أن تخطئ ، ستتوقف الساعة ويختفي الألم .

أغمض الطفل عينيه وبدأ يركز بكل حواسه في صوت الساعة: "واحد... اثنين... ثلاثة..."

في تلك اللحظة بالذات، وبحركة خاطفة ويدين ثابتتين كالجراحين المحترفين، قامت ليان بضغط الجرح، وتنظيفه، وقطم الشريان النازف بخيط جراحي بدائي في ثوانٍ معدودة.

كان الطفل مستغرقاً في العدّ و التلاوة ، عندما أنهى تلاوة ما حفظ ، كانت قد أتمت العقدة الأخيرة وربطت الضماد.

قالت له :

يا لك من طفلٍ شجاع ، أتدري أن صوتك رائع في تلاوة القرآن ؟

وقف آدم مشدوهاً، فاتحاً فمه من الذهول .

التدفق الخرافي لثباتها النفسي وسرعة بديهتها في استخدام "التشتيت الذهني" للتعويض عن غياب المخدر وسط أصوات القصف جعلته ينسى صدمة الألم للحظة.

مسحت ليان العرق عن جبهتها بظهر يدها الملطخة بالدم، والتفتت لآدم وقالت بهدوء:

الطب في أوقات السلم يتطلب المعرفة يا آدم.. أما الطب في الحرب، فيتطلب أن تسرق تركيز المريض من ألمه قبل أن تلمس جسده بالمشرط ، المعقمات والمخدرات قد تنفد، لكن العقل لا ينفد.

أُعجب آدم بدهائها و عندما انتهيا من عملهما أخذا إستراحةً صغيرة

فأحضر آدم كوبين من القهوة ، واحدٌ له و الآخر لها .

ناولها كوبها وهو يجلس بجوارها وقال :

قهوة سوداء بدون سكر ، هذا كل ما استطاعت المساعدات توفيره هذا الأسبوع . أعلم أنها سيئة، لكنها الرفيق الوحيد المتبقي لنا هنا

أخذت ليان الكوب بين يديها الباردتين، واستنشقت رائحته بامتنان قبل أن ترتشف منه رشفةً صغيرة:

في الحرب يا آدم، القهوة لا تُقاس بحلاوة طعمها، بل بالدفء الذي تتركه في يديك. إنها تثبت لنا أننا ما زلنا أحياء ونشعر.

ابتسم آدم بخفة، ونظر إليها بنصف عين ملؤها الاستغراب والتقدير:

من أين تأتين بهذه الفلسفة وسط كل هذه الدماء والجثث؟ توقعتُ أن أجد طالبة طب ترتجف رعباً في أول يوم لها بالمشفى الميداني، فإذا بي أجد جراحة مخضرمة تحارب الألم بالذكاء وتجد الحكمة في كوب قهوة سيء!

ضحكت ليان بضحكة هادئة أذابت جبل الخوف المتراكم في المكان لثوانٍ، وقالت وهي تنظر إلى الأفق :

الحرب تجبرك على النمو سريعاً يا آدم ، إما أن تسمح للمأساة بأن تكسرك، أو أن تخلق من قلب الخراب سبباً صغيراً ليجعلك تبتسم وتكمل .

واليوم، هذا الكوب هو سببي الذي جعلني أبتسم .

نظر إليها آدم مطولاً، وشعر لأول مرة منذ أشهر أن ثقل الحرب أصبح أخف، وقال بنبرة دافئة :

إذن، يسعدني جداً أنني كنت الشخص الذي قدم لكِ هذا السبب اليوم .

و إذ ظهر الملثم بفيديو مصوّر يعلن فيه عن بدء الهدنة في صباح اليوم التالي

قررت ليان البقاء في المشفى لتكون الطبيبة المناوبة فقال آدم :

لم تريدين البقاء ؟ ألا تخافين ؟

أجابته ليان : لا بأس، إنها مجرد ليلة و غداً سيكون أول أيام الهدنة .

و في تلك الليل الأخيرة ، تم قصف المشفى بحزامٍ ناري ، الانفجارات كانت متتابعة، متوحّشة ، و عشوائية .

اتصل سِوار بكيان لتغطية الحدث و ذهب لاصطحابها دون أن يخبرها اسم المشفى و عند وصولها كان آدم قبلها يركض في الممرات و بين المرضى و الركام وهو يبحث عن شيءٍ لا تدري ما هو ...

كل ما تعرفه أن قلبها انقبض دون أن تدري ما السبب

كانت دموع الناس تختلط مع الدخان ، والصرخات تتداخل مع صوت الحديد وهو ينهار .

ركض آدم نحوها وهو يصرخ بصوتٍ يشقّ الدخان :

"لييييان!"

يسأل الجرحى و الأطباء عن تلك الفتاة البريئة التي أصرت أن تبقَ في الليلة الأخيرة ما قبل الهدنة لتساعد الناس .

أين ليان ؟

لم تستطع كيان نطق حرفٍ واحد ، يصرخون باسم ليان و يبحثون عنها

اقترب منهم رجلٌ مغطّى بالغبار والدم، يعرج وهو يمسك بكتفه المصاب.

كان وجهه شاحباً وعيناه تائهتين كأنهما تبحثان عن ذاكرةٍ ضائعة.

قال بصوتٍ متقطّع :

أ... أنا رأيتها... رأيت الطبيبة قبل دقائق من القصف.

تجمّدت كيان في مكانها، وسِوار أمسك بذراع الرجل كي لا يسقط

سأله آدم: أين رأيتها ؟

أجاب الرجل : كانت ذاهبة برفقة إحدى الطبيبات المناوبات إلى غرفة المناوبة .

ارتجفت كيان، وسألت بصوتٍ مبحوح :

غرفة المناوبة ؟ أيّ غرفة ؟

أشار آدم بيده المرتجفة نحو الجهة الشرقية من المبنى وقال بصوتٍ متكسّر :

"الغرفة الصغيرة... آخر ممرّ على اليمين.

الغرفة... الغرفة التي ضُربت أولًا.

سقطت الكلمات من فمه كأنها حجارة .

أردف الرجل وهو يضغط على جرحه قائلاً:

رأيتها تدخل... ثم سمعت الانفجار بعد دقائق .

ركض آدم نحو الغرفة التي كانت ركام و بدأ ينبش بين الحجارة على ليان بيدين مرتجفتين وعيناه مغمورتان بالدموع و هو يتمتم بصوتٍ مكسور :

ليان ، لا تتركيني أرجوكِ ....

ليتني لم أدعكِ تبقين هذه الليلة .

حبّ تحت سماء ملغومة

الفصل الرابع

آخر إسعافٍ قبل الهدنة كان قلب

لم أكن أعلم يا أنس أن الأيدي التي تُتقن رتق الجراح وتضماد النزيف، قد تقف عاجزةً تماماً أمام قدرٍ يختبرك في الخفاء بأعز من تملك .

أكتب هذه الكلمات وفي صدري انكسارٌ لا يطبّبه ضماد !

بعد أكثر من تسع ساعاتٍ من البحث المستمر عن ليان تحت الركام ، وجدوها مصابة بالكثير من الجروح والكسور و كانت قدمها تنزف بشدة .

حملها آدم و هرع إلى الغرفة الوحيدة التي لم يطلها القصف وهي غرفة المطبخ .

حاول إنقاذ ليان و خياطة جروحها و جبر كسورها ولكن الصدمة أن قدمها تحتاج إلى بتر !!

دون أدوات مختصة ، دون تعقيم ، دون بنج !

وهو ليس طبيباً جراحاً و إنما مُسعف !

اضطر إلى **بتر** ساقها اليمنى على طاولة المطبخ لإنقاذ حياتها، مستخدماً أدوات منزلية بسيطة جداً مثل سكين المطبخ والمقص وخيط الحياكة العادي، وذلك دون استخدام أي نوع من أنواع التخدير أو الأدوات الطبية المعقمة .

فقدت ليان وعيها من شدة الألم، و اعتصر قلب آدم عليها.

حاول إيجاد سيارة لنقلها إلى منزلها لكن لعدم توفر الوقود ، وجد بصعوبة بعد عدة ساعات سيارة أجرة.

نقلها إلى منزلها وعيناه تغمرهمها الدموع و الألم يعتصر قلبه عليها .

جلست ليان في غرفتها وحدها على سريرها وهي تحمل المصحف و تتلو آياته و هي تبكي .

طرق آدم باب غرفتها و استأذنها بالدخول .

قالت : لا أريد رؤية أحد، أريد أن أبقى وحدي قليلاً يا أمي .

فقال : هذا أنا يا ليان ، أريد أن أطمئن عليكِ قبل أن أعود إلى المشفى

فأجابت بصوتٍ منكسر : حسناً ، تفضل

دخل آدم و عيناه محمرّتان من كثرة البكاء ، جلس على الكرسي بجانب سريرها ،

وقال لها : لا أدري ماذا أقول لك في ظل هذه المأساة ، و أعلم أن جميع لغات العالم لن تشفِ جرحك أو تعيد خسارتك ، و لكن تذكري جيداً أنني معك و لن أتركك .

أومأت برأسها بإنكسار و شكرته على وقوفه بجانبها وإنقاذه لحياتها ،

و قالت : الحمد لله

قال لها ، يمكنني أن أقوم بإجراء عملية لوضع قدم صناعية بدلاً من التي خسرتِها عندما تبدأ الهدنة

فقالت له : حسناً ، بإذن الله

استأذنها بالرحيل و غادر وهو يحمل في قلبه جراح غزة كلها .

كان الصباح قد شقَّ عتمةَ الليل بخيوط شمسه و بدأت الهدنة بدقائقها الأولى .

بدأت الناس تحاول استنشاق الهواء دون أن يختلط برائحة الدخان و البارود

و بدأ الهلال الأحمر بتكثيف عمليات البحث عن المفقودين تحت الأنقاض .

و في أحد مستشفيات غزة ، تم نقل عدد كبير من المصابين ، و أحضروا رجلاً مصاباً بقناص في الرأس لتتفاجأ المسعفة انه زوجها و قد فارق الحياة بين يديها .

كم من قصةٍ شبيهةٍ لهذه تحرق أكبادنا !

بدأت الناس تحاول إنقاذ ما تبقى و دفن ما ذهب .

تم الاتفاق على إدخال نحو 200 شاحنة إغاثية يومياً خلال أيام الهدنة .

شملت المساعدات دخول شاحنات محملة بالوقود والغاز إلى القطاع

حين التقت حروفي ببُندقيّتَيك

في ذاك الصباح بالتحديد ، توقفت الدقائق وسكن الهواء ، لم أكن أعلم أن عينيك تحملان شروقاً كاملاً انتظرته روحٌ طال عليها الليل ، أتدرك ماذا يعني أن تنظر إليّ فتهدأ كل الفوضى بداخلي؟

كان لقاؤنا خطوة واحدة، لكنها اتسعت لترمم كل ما انكسر بي في هذه الحرب ، لم تكن مجرد نظرة ، كانت استراحة محارب تُعلن لقلبي أن الحرب قد انتهت، وأن أماني كله يبدأ من هنا، في عينيك .

كنتُ أجمع الأطفال من حولي كعادتي في كل يوم ، ولم أكن أدري أنك خلفي تراقب حروفي ، فبدأ طفلٌ صغيرٌ سؤالي ،

كيف يمكننا أن نحصل على السعادة ؟

بيتنا هُدِم ، و ألعابي دُفِنت ، و غرفتي رُدِمت ، ولا يوجد طعامٌ نأكله .

أوجعني كثيراً كلامه لكنني تمالكتُ نفسي وقلتُ له : حسناً يا صغيري سوف أروي لك قصةً صغيرة وعندما تسمعها ستجد الجواب على سؤالك

يُحكى أنه كان هنالك ملك كان يعيش في قصرٍ تملؤه النعم ، من مالٍ وطعامٍ و ذهبٍ و حاشية تخدمه ، وكانت الناس تحسده على سعادته التي يظنونها

إلا أن الحقيقة عكس ذلك ، كان ملك تعيس لا تفارقه الكآبة .

ذات يومٍ استدعى حكيم البلاد وقال له :

أملك كل شيء ، إلا السعادة ، فكيف أجدها ؟

فهزّ الحكيم رأسه وقال بثقة :

قميص رجلٍ سعيد

قطب الملك حاجبيه باستغراب

فتابع الحكيم : عليك أن تنام ليلةً بقميص رجلٍ سعيد

انتشرت رسل الملك في أرجاء المملكة بحثاً عن قميص رجلٍ سعيد

كل من سألوه كان يشكو نقصاً

فقيرٌ يشكو فقره ، غنيٌّ يشكو خوفه ، و أبٌ يشكو ولده .

حتى مرّوا أخيراً بمتسوّل يجلس على جانب الطريق بوجهٍ بشوشٍ مبتسم ، اقتربوا و سألوه : هل أنت سعيد ؟؟

فقال : نعم ، الحمد لله ، لا ينقصني شيء

تعجبوا ، ثم قالوا : يريد الملك قميصك لينام فيه ليلة ، ولك عنده من الذهب ما تشاء

فانفجر الرجل ضاحكاً وقال :

أنا سعيد لكن ، ليس لي قميص !

عمّ الصمت ، وعاد الباحثون إلى القصر وعلى أفواههم جملة واحدة :

من وجد الرضا من الله ، وجد السعادة ، حتى وإن لم يملك قميصاً!

فالسعادة يا صغاري لا تُلبَس .

علا صوتُ تصفيقٍ من خلفي ، التفتُّ قليلاً فتبعثرتُ بعينيك البُندقيّة ، عينانِ بلونِ الأرضِ بعد المطر، بلونِ جذورِ السنديان ، و كلّما أطلتُ النظرَ إليك، شعرتُ وكأنَّ طبيعة الخريفِ كُثِّفَت في ملامحك ،حُمرةُ شعركَ تتهادى كأوراقِ الشجرِ الملتهبةِ ، فيشتعلُ شعركَ الأحمرُ تحت الضوءِ كشعاعِ شمسٍ يُعزفُ على جمرٍ.

والطولُ الباذخُ في لحيتك الذي يزيد حدّة ملامحك رجولةً، جميعها ترسم حولكَ هالةً من الوقارِ والدفء.

فقلت لي : القصة هذه جميلة جداً، ما اسمكِ ؟

ـ و ... وطـ...ـن ، اسمي وطن

ـ فقلت لي : اسمٌ جميل ، كجمال هذا الوطن ، أعلم أنكِ لم تسأليني عن اسمي لكنني سأخبرك ، اسمي أنس

ـ تشرفتُ بمعرفتك يا أنس، حسناً يا صغار يكفينا اليوم هذا فقاطعتني وطلبت أن أروي قصة أخرى

التفتُ إلى الصغار محاولةً تجاهلك و سألتهم : ما هو أكبر عدوٍ للإنسان ؟

أجابني جهاد : الاحتلال

ضحكت و قلت له أجل ولكن شيءٌ آخر يا جهاد

عمّ الصمت قليلاً فقلتُ : **الخوف** ، إنه من أقوى الأسلحة التي تقضي على الإنسان دون الحاجة إلى القتال ، حسناً لا تتعجبّوا سأروي لكم قصةً قصيرة لتفهموا معنى كلامي

في حروب القرن الرابع عشر أسر أحد القادة وكانت عقوبته الموت محترقاً في ساحة المدينة.

طوال ثلاثة أيام قبل إعدامه امتنع القائد عن الطعام والشرب ولم ينم لحظة واحدة بسبب الهلع والتفكير في لحظة ملامسة النار لجسده.

وعندما حان وقت التنفيذ، وقفت المدينة تشاهد ما سيحدث ، لكن شعلة التنفيذ انطفأت مرتين بسبب المطر ، وحين لامست النار قدمه أخيراً، سقط فاقداً للوعي ومات بسكتة قلبية قبل أن تؤذيه النيران .

لقد قتله الخوف في خياله ألف مرة قبل أن تمسه النار لثانية واحدة .

هل فهمتم الآن معنى كلامي ؟

ـ نعم ، فهمنا

ـ حسناً هذا يكفي لليوم ، سنلتقي غداً في ذات الموعد ، إلى اللقاء

هممتُ بجمع أغراضي و أنا أراك واقفاً خلفي تراقب تحركاتي بعينيك

ثم اقتربت مني و سألتني : ما رأيكِ بهذهِ الحرب يا وطن؟

جلستُ على الكرسي و نظرتُ إلى عينيك لبضع ثوانٍ وسألتُ نفسي :

أيُّ حربٍ يقصد ؟ التي سرقت أحلامنا أم التي سرقت قلبي الآن ؟

ثم تنهدتُ و قلت :

ـ هذه الحرب ليست اختياراً يا أنس ، إنها حربٌ محتومة ، إن لم تستعد ما سُلب منك بالقوة ، فسيُسلب ما تبقى منك بالقوة أيضاً ، أرواحنا لا تساوي شيئاً و قد تحوّلنا من أرواحٍ و أحلامٍ و بيوتٍ و ذكريات إلى أرقامٍ و إحصائيات تُعد على شاشات التلفاز التي لا تعرف معنى الفقد !

و إن أردت وصفاً أدق للحرب ، هي أن يتحوّل الزمن إلى سكين ، كل ثانية كفيلة بهدر أرواحٍ و إنقاذ أخرى ، كمسعفٍ لم يصل إلى موقع القصف في الوقت المحدد لصعوبة الطرقات ، أو طبيبٍ لم يستطع إنقاذ جميع المصابين بسبب العدد الهائل من الإصابات و الإمكانيات الشحيحة في المستشفيات ، أو أبٍ ذهب ليبحث عن كسرة خبزٍ لطفله الذي يعاني من سوء التغذية ، وبعد نهارٍ طويلٍ عاد ليجد ابنه قد ارتقى بسبب الجوع .

الحرب يا أنس هي أن يموت الناس قبل أن تمسّهم النيران ، ويموتون مرة أخرى حين تمسّهم .

أما الذكاء في إدارة هذه الحرب يا أنس ، ليس في عدد البنادق ، ولا في نوع الصواريخ ، ولا في حجم الجيوش ، ولا في صخب البيانات العسكرية .

الذكاء الحقيقي هو أن تعرف متى تقاتل ، ومتى تتراجع ، ومتى تصمت ، ومتى تتكلّم ، ومتى تُنقذ حياة واحدة بدل أن تخسر مئة .

أن تفهم خوف العدو قبل أن تفهم سلاحه ، و أن تدير الحرب دون أن تسمح لها بأن تديرك .

الذكاء في الحرب يا أنس ليس أن تربح المعركة... بل أن تمنع الحرب من أن تربحك .

ـ كلامك صحيح يا وطن ، و لكن كيف ذلك ؟

ـ حسناً سأروي لك قصة قصيرة لعلك تدرك كلامي منها .

في إحدى الحروب ، ألقى قائد عسكري القبض على ثلاثة جواسيس من جيش العدو. بدل أن يعاقبهم أو يسجنهم ، أطلق سراح اثنين منهم فوراً، وحبس الثالث في مكان مريح جداً وقدم له أفضل أنواع الطعام والشراب ، وكان يزوره يومياً ليتحدث معه في أمور عامة ويضاحكه .

بعد أسبوع ، أطلق القائد سراح الجاسوس الثالث أيضاً وأعاده لجيشه .

عندما عاد الجاسوس الثالث لجيشه ، سأله جنرالـه بإنكاد وشك :

"كيف أطلقوا سراحك بعد أسبوع وعاملوك بكرامة، بينما أطلقوا سراح صاحبيك في اليوم الأول؟ ماذا أخبرتهم؟ وما هو السعر الذي دفعته؟"

أقسم الجاسوس أنه لم يقل كلمة واحدة ولم يخن وطنه ، لكن لم يصدقه أحد !

ظن الجميع أنه أصبح خائناً وجاسوساً مزدوجاً،

وسادت حالة من الشك والريبة بين صفوف قادة العدو، وبدأوا يشكون في بعضهم البعض حتى تفتت تماسك جيشهم واضطروا للانسحاب .

ليس عليك دائماً استعمال ذراعك لتكسب ، فالعقل من أشد الأسلحة فتكاً

وليس الذكاء وحده ينجي الإنسان ، أحياناً الخديعة تفعل ذلك

ففي إحدى المعارك، كان جيش عمرو بن العاص قليلاً ، عددهم لا يكفي لصدّ هجومٍ واحد.

لكنّ القائد لم يرَ قلّة العدد ، بل رأى فرصةً لصناعة وهمٍ كبير.

أمر كل جندي أن يشعل عشر نيران في الليل، نيرانٌ كثيرة، متباعدة، كأنّ الأرض امتلأت بالجنود ، وعندما أشرقت الشمس ، رأى العدو آلاف النيران المطفأة ، فظنّ أنّ جيش المسلمين طوفانٌ لا يمكن الوقوف بوجهه لكثرة عدده .

وهكذا انسحب الجيش من المعركة قبل أن يجرب القتال .

رمقتني بنظرةِ إعجاب ثم سألتني ، وما رأيك في الهدنة ؟

ـ في غياب الحرب ، لا يمحو الموت أحداً من قلوبنا ، يبقى الراحل ظلاً لا يغادرنا إلا حين نقرر أن نغلق النافذة التي يدخل منها .

فالموت لا يملك سلطةً على الذاكرة لأنه يأخذ الجسد فقط ، لكننا نحاول أن ننسى كي لا يظل الجرح مفتوحاً كل يوم فنضع الراحلين في زاوية أقل ألماً .

أمّا بالنسبة للعدو القوي، فقبوله بالهدنة ليس رحمةً ولا رغبةً في السلام، بل علامةٌ على أنّ سبل الانتصار بدأت تنفلت من يده .

القوي لا يطلب استراحة إلا حين يشعر بأنّ الحرب لم تعد تسير كما خطّط لها، وأنّ النصر الذي كان يراه قريبًا صار بعيداً، وأنّ الأرض التي أراد أن يبتلعها لم تعد تكفيه .

يدخل الهدنة ليقتل أكثر بعدها، ليقنع نفسه أنّ كثرة الدم تعني كثرة الانتصار، وليخدع ذاته قبل أن يخدع العالم .

أمّا الضعيف، فيقبل بها ليجعل القوي ينحني قليلاً، ليُجبره على الوقوف في المساحة نفسها التي يقف فيها، ولو لبرهة قصيرة .

فالهدنة يا أنس هي اللحظة التي يتساوى فيها الطرفان، و يجلس فيها القوي على الطاولة ذاتها التي يجلس عليها الضعيف ليصبح الطرفان متكافئان مهما اختلفت قوتهم ، هي رسالةٌ صغيرةٌ من الضعيف تقول : لقد تساوينا الآن ولو لبضع ساعات

لم تقل شيئاً ، لكن ملامحك تغيّرت قليلاً، كأنّ كلامي حرّك شيئاً في داخلك لم يكن مستعداً للتحرّك.

رفعتَ حاجبك بخفوت، ثم ابتسمت تلك الابتسامة الصغيرة التي لا تظهر إلا عندما يعجبك شيء دون أن تعترف به .

ـ أنس... هل تؤمن بأنّ الإنسان يستطيع احتمال الألم؟

ـ أيُّ ألمٍ تقصدين ؟ ألم الحرب ، أم ألم القلب؟

ـ الألم الذي يظلّ في القلب حتى بعد أن تهدأ الحرب

ـ الألم لا يُناقش يا وطن ، فلكلّ إنسانٍ ميزانٌ خاصّ يقيس به ما يؤذيه.

قد تُسقط كلمةٌ أحدهم، ولا تُسقطه قذيفة.

الألم ليس معياراً للقوّة... بل معيارٌ للإنسان نفسه.

كلّ ألمٍ يترك أثراً، لكنّ الناس تختلف في طريقة حمله.

ـ نعم صدقت ، إنّه تجربةٌ فرديّة، لا يعرفها إلا صاحبها.

ـ أتدرين ما أقسى أنواع الألم ؟

إنه الفقد ، وجع الفقد يا وطن.

أن تعرف أنّ الحرب أخذت منك ما لن يعود.

ـ و هل فقدت أحداً ؟ سألتك و أنا خائفة من الإجابة

ـ لي أخٌ شهيد...

وأخٌ آخر أسيرٌ منذ عامين .

رأيتُ شرارة ثأرٍ تُشع من عينيك ممزوجة بألم الفقد .

قلت لي بعد لحظة شرود : هيّا بنا لنذهب سأوصلك إلى خيمتك ، انها بالقرب من خيمة والديّ .

نهضتُ من مكاني، وسرتُ إلى جانبك يا أنس، بخطواتٍ هادئةٍ تشبه الليل الذي كان يهبط على المخيّم

وحين اقتربنا من صفّ الخيم، قلتَ بصوتٍ منخفضٍ يحمل شيئاً من التردد :

وطن... أريد أن أقول شيئاً قبل أن نصل

نظرتُ إليك، فتابعتَ :

أنا معجبٌ بثقافتكِ، بطريقة حديثكِ، وبالعمق الذي تضعينه في كل كلمة

لم ألتقِ كثيرين يرون الحرب كما ترينها أنتِ ، الجميع يلوم المقاومة وكأنها من أدخلت الإحتلال إلى بلدنا و أعطتهم الحق المشروع ليحتلونا

قلتُ لك بخفوت:

الثقافة ليست شيئاً كبيراً يا أنس ، إنّها فقط محاولة لفهم العالم

ابتسمتَ ابتسامةً صغيرة، ثم سألتَ :

وما هي هوايتكِ المفضّلة يا وطن؟

ـ أحبّ القراءة والكتابة حين أستطيع ، إنهما المنفس الوحيد لروحي .

هززتَ رأسك بإعجابٍ واضح ، قلت لي : هذا واضحٌ من طريقة حديثك ، لكن يجب عليكِ أن تريني كتاباتك غداً ، ثم أشرتَ إلى خيمةٍ كبيرةٍ قريبة منّا:

هنا خيمة والديّ... وخيمتكِ ليست بعيدة عنها كما اعتقد ، دعيني أوصلكِ .

سرتُ بجانبك و كأنني أسير بجناحين لا على قدمين .

وحين وقفنا أمام خيمتي، توقّف أنس، كأنّه يبحث عن طريقةٍ مناسبة ليقول ما يريد قوله.

ثم مدّ يده نحوي بورقةٍ صغيرة، وقال بصوتٍ يحمل رجولةً لا تخلو من اللطف :

هذا رقم هاتفي يا وطن

إن احتجتِ شيئاً ، أيّ شيء ، لا تتردّدي في الاتصال بي .

غادرتني و تركت ابتسامتك تحتل وجهي .

بقيت الليل كلّه أفكر فيك حتى جاء الصباح التالي ، ذهبت كعادتي إلى الأطفال و أنا أبحث بعينيّ عنك ، لكنني لم أجدك .

بحثتُ عنك بين وجوه الأطفال، بين خطوات الممرّ، بين أصوات الصباح...

ولم تكن هناك.

وكأنّ الليل أخذك معه، وترك لي رقم هاتفك أحدق به .

هدنةٌ في عينين

الفصل الخامس

حين عشقتُ بُندقيّتين

أنت لست مجرد بطل في حكايتي يا أنس، أنت السطر الأول، والشغف الذي يملأ كل الفصول ، انت حاضري ومستقبلي و ملاذي من هذا الخراب .

أتدري بأنني منذ التقيتُ بك وعيناي لا تُتقنان النظر إلى أحد سواك، أصبحت بوصلتي وكل الاتجاهات .

ورغم أنّ الموت يمرّ بين الخيم كما يمرّ الهواء، ورغم أنّ الحرب تسرق منّا ما لا يُعوَّض، إلا أنّ الناس هنا ما زالوا يبحثون عن الحياة كما يبحث الغريق عن ضوءٍ بعيدٍ في آخر البحر.

فالقلب مهما أثقلته الفجائع يظل يصرّ على أن يحب ، فترى الناس رغم كل هذا الظلام مازالوا يتشبثون بالحياة أكثر، كأنهم يخافون أن تنطفئ إن لم يمسكوها بأيديهم

لذلك لم يكن غريباً أن يستغل كيان و سِوار فرصة الهدنة ، و أن يعقد قرانهما في ليلةٍ أعتبرها تحديّاً للموت و ترحيباً ببقايا الحياة ، ليثبتا أن الحب هو آخر ما ينهزم في هذه الحرب .

أما آدم ، فقد فضحه حنينه و عشقه لليان ، ذهب في مساء اليوم الثاني من الهدنة لزيارتها ، جلس وهو مرتبكٌ على عكس عهد ، يفرك يديه و نظراته متشتتة و كلماته متبعثرة ، سألته ليان : ما بك ؟

حاول جمع شجاعته و أجابها : حسناً سأخبرك ، أنا معجبٌ بكِ و أريد الزواج منكِ ، إن قبلتي بي فسأكون أسعد الناس بحصولي على جوهرةٍ لا تقدر بثمن مثلك ، و إن لم تقبلي فهاذ فهذا حقّكِ، ولن ألومك ، وستبقين في عينيّ كما انتِ .

صمتت ليان قليلاً ثم انفجرت بالبكاء وقالت بصوتٍ متقطّع، وهي تحاول أن تمسح دموعها بيدٍ ترتجف : كيف ستتزوج فتاةً مبتورة القدم ؟

كانت كلماتها أشبه باعترافٍ موجع عن خوفها من أن تكون عبئاً

فقد أخذت الحرب منها ثقتها، أنوثتها، إحساسها بأنّها تستحقّ أن تُحَبّ.

استرسلت قائلةً : أنا أخاف يا آدم... أخاف أن تنظر إليّ يوماً وتندم.

أخاف أن أكون جرحاً في حياتك... لا شريكةً لها

اقترب منها آدم خطوةً و قال وهو يطيل النظر بعينيها الباكيتين :

اسمعيني جيداً، أنا لا أرى فيكِ قدماً مبتورة ، أنا أرى امرأةً قويةً هزمت الحرب وبقيت واقفة .

أرى قلباً جميلاً، و روحاً نقية، وابتسامةً تُعيد الحياة لهذا المكان كما أضاءت الحياة بعينيّ ، قدَمكِ لم تنتقص منكِ شيئاً الحرب أخذت جزءاً من جسدك، لكنها لم تقترب من روحك .

رفعت ليان وجهها إليه، والدموع ما زالت معلّقة على رموشها ، نظرت في عينيه طويلاً، كأنّها تبحث عن آخر ذرة شكّ، فلم تجد.

مسحت دموعها بيدها، ثم ابتسمت ابتسامةً صغيرةً خجولة، وقالت:

إن كنتَ تريدني كما أنا ، بكلّ ندبي ، بكلّ ما أخذته الحرب منّي ،

فأنا أريدك أيضاً

وبينما كان آدم وليان ينسجان خيطاً جديداً للحياة ، كنت أنسج خيطاً يربط عينيك بقلبي ، وما إن اكتملت تلك الفكرة في رأسي ، حتى سمعت صوت خطواتٍ من

خلفي ، رفعتُ رأسي نحو باب الخيمة، كأنّ قلبي يسبقني بخطوة، ينتظر وجهك لينبض من جديد ، ينتظر حضورك ، ينتظر صوتك.

ينتظر أن تقول شيئاً يطفئ هذا الشوق الذي أشعلته دون أن تدري .

اخذت كرسياً وجلست بجانب الأطفال و قلت لي : صباح الخير يا آنسة ، أعتذر عن التأخر لكن كان يتوجب علي شحن بطارية هاتفي و إحضار بعض الطعام ، و الآن يمكنك بدأ الحصة.

كنت تثق بوقع كلماتك على قلبي .

فقلت : حسناً ، سأروي لكم قصة عن الأمانة

استودع رجل مالاً عند صاحب له وسافر ، مرت الأيام و عاد الرجل مطالباً بماله

تفاجأ بصاحبه منكراً المال ، فلجأ إلى قاضٍ اسمه إياس بن معاوية

معروف بحنكته و ذكائه الخارق .

سمع القاضي قصة الرجل فابتسم وقال له :

لا عليك ولكن اكتم أمرك ولا تُعلم أحداً أنك جئتني ، و عد إلي بعد خمس ساعات .

بعدها أرسل القاضي بطلب الرجل الخائن ، وحين حضر ، استقبله بحفاوة وقال له :

لدي أموال كثيرة للأيتام ، و أريد أن أسلمها لرجل أمين يحفظها و يتصرف بها بمعرفته ، فهل بيتك يتسع لها ؟

رد الخائن : بالطبع يا سيدي ، أنا لها .

فأجاب القاضي : عد إلي غداً لنرتب نقل الأموال سراً .

في المساء ، عاد المظلوم إلى القاضي ،

فقال له القاضي : اذهب الآن إلى بيت الخائن و قل له :

إما أن تعطيني مالي أو أنني سأذهب إلى القاضي إياس ليحكم بيننا

فعل المظلوم ذلك وحين سمع الخائن كلامه ارتعب وقال في نفسه :

إن عرف القاضي سيحرمني من أموال الأيتام الكثيرة ، ابتسم بخبث وقال لصاحب المال : كنت أمزح معك يا صديقي ، ها هي أموالك في الحفظ و الصون

في اليوم التالي ، دخل الخائن مجلس القاضي يتبختر متفائلاً ليستلم أموال الأيتام

فرمقه القاضي باحتقار وقال له : اخسأ ، اخسأ يا خائن الأمانة

هيا أغرب عن وجهي و ليس لك أموال عندي وانت تعرف لماذا

إن خائن الأمانة يا صغار لا يُصدق ولا يؤتمن مهما كان نوع الأمانة، سواء كانت مالاً أم قلباً أو وطناً .

انتهيتُ من سرد القصة، وصفّق الأطفال بحماسٍ ، ثم بدأوا يغادرون احداً تلو الآخر، يحملون ضحكاتٍ صغيرة معهم .

وقفتُ لأرتّب الكراسي، وكنتُ أشعر بوجودك خلفي .

كنتَ دائماً هكذا ، حضورك يسبق خطواتك .

قالت إحدى الصغيرات وهي تلوّح بيدها:

– مع السلامة يا آنسة وطن.

ابتسمتُ لها، ثم نظرتُ إليك...

كنتَ واقفاً عند باب الخيمة، يديك في جيبيك، وابتسامتك تلك التي أعرفها جيداً ترتسم على وجهك .

اقتربت مني وقلت بصوتٍ منخفض :

الجوّ لطيف هذا اليوم والبحر قريب

سكتّ لحظة، كأنك تجمع شجاعتك، ثم أضفت:

هل تودّين أن نسير قليلاً عند الشاطئ؟

رفعتُ رأسي نحوك، وشعرتُ بأن قلبي يلتقط أنفاسه

قلتُ لك بهدوءٍ حاولتُ أن أخفي فيه ارتباكي :

عند الشاطئ؟

فابتسمتَ ابتسامةً خفيفةً لم أرها عليك من قبل، و قلت :

نعم... إن رغبتِ بذلك

لم أجد الكلمات، لكنني وجدتُ رأسي يومئ دون تفكير

خرجنا معاً و والهدنة كانت تمنح المكان هدوءاً نادراً.

كنتَ تسير بجانبي، قريباً بما يكفي لأسمع أنفاسك، وبعيداً بما يكفي لتترك لي مساحةً أرتّب فيها ارتباكي .

وعندما اقتربنا من الشاطئ، بدا البحر ممتداً أمامنا كأنه صفحة جديدة...

وكنتُ أشعر أن كل خطوة نخطوها معاً تكتب سطراً جديداً في حكايتي معك .

كان البحر ساكنًا على غير عادته، كأنّه يراقب خطواتنا ونحن نسير بمحاذاة الشاطئ.

كانت الأمواج تتقدّم ثم تتراجع بخفوتٍ ، بينما كانت الشمس تترك خيوطًا ذهبية على سطح الماء .

ثم قطعت صمتنا بسؤال مباغت :

وطن... ما معنى الألم بالنسبة لك ؟

نظرتُ إلى البحر، ثم قلتُ بصوتٍ متكسّر :

الألم هو الشيء الوحيد الذي لا يستطيع أحد أن يشاركه معنا بالكامل .

يمكنهم أن يتعاطفوا، أن يواسوا، أن يربّتوا على أكتافنا...

لكنهم لا يشعرون بما نشعر به .

سرتَ خطوةً أقرب، كأنك تريد أن تسمع كل كلمة دون أن تفقد منها شيئاً.

تابعتُ وأنا أراقب الأمواج :

الألم بالنسبة لي ليس ما يفعله بنا، بل ما يتركه فينا ، وهو نسبي بين شخص و آخر

فالوجع لا يناقش يا أنس!

النبي صل الله عليه وسلم وهو يساوي صفوف جيشه يوم بدر ، حرّك أحد الجنود للخلف بعصاه في بطنه ، فالجندي قال له : "أوجعتني يا رسول الله ! فكشف الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام عن بطنه و أعطاه العصى وقال له بلا تردد "اقتص" ! لم يناقشه، لم يقل له هذه لا تؤلم إنها بسيطة .

أنظر حولك كم شخصاً قلت له أوجعتني وهو يحاول أن يقنعك بأنك المخطئ و أن القصة لا تستحق و أنك تبالغ ، درجة الشعور بالألم من المواقف مختلفة ، و لا يصح تقييم شعور شخص ما بقلبك انت .

الألم هو الندبة التي لا تُرى، لكنه يغيّر طريقة سيرنا، طريقة كلامنا، طريقة نظرنا للعالم .

قلتَ بصوتٍ منخفض :

وكيف غيّركِ أنتِ؟

تنفّستُ بعمق، ثم قلت :

علّمني أن أتمسّك بما أحبّ...

أن أبحث عن الضوء ولو كان صغيراً...

أن أرى الجمال في الأشياء التي يراها الآخرون عادية...

وأن أقدّر وجود شخصٍ واحدٍ فقط يجعل هذا الخراب أقلّ قسوة .

سكتُّ لحظة، ثم أضفتُ بصوتٍ يكاد يختنق:

الألم جعلني أفهم أن الحياة قصيرة جداً...

وأنّ بعض الناس... إن دخلوا قلوبنا، لا يخرجون منها أبداً .

ـ وطن... أنتِ تتحدّثين عن الألم كأنكِ تحملينه منذ زمنٍ طويل .

أجبتُك وأنا أبتسم ابتسامةً صغيرةً لا تخفي حقيقتها :

نعم... لكنّه لم يعد يخيفني كما كان يفعل .

ربما لأنني وجدتُ شيئاً يجعل احتماله أسهل .

سألتَ بصوتٍ خافت :

وما هو؟ نظرتُ إليك طويلاً ، ثم قلتُ :

وجودك ....

هل تعلم أنّ بعض الناس يدخلون حياتنا دون أن ننتبه، ثم نكتشف فجأة أنهم أصبحوا جزءاً منّا ؟

قلتَ وأنت تنظر إلى البحر، كأنك تبحث عن شجاعة إضافية في الأفق :

أنتِ لم تدخلي حياتي كعابرةٍ في هذا المخيم ، دخلتِ بهدوء، لكن أثرَكِ لم يكن هادئاً أبداً .

شعرتُ بأن قلبي يضرب صدري بقوة، لكنك تابعت كلامك دون أن تمنحني فرصة للهروب :

أفكر بكِ أكثر مما ينبغي ، لقد أصبحتِ شيئاً لا يمكنني تجاهله يا وطن ، أصبحتِ وطني ، لن أنكر أنني رجلٌ لا يجيد الكلام الكثير، ولا يعرف كيف يزيّن مشاعره

أتعلمين يا وطن... في مكان مثل هذا المخيم، حيث ينسى المرء أحياناً ملامح قلبه تحت ركام القسوة، يبني كلٌ منا جدراناً سميكة لكي لا يتألم مجدداً.

كنت أظن أنني أتقنت الغياب، وأنني محصن ضد الفقد، حتى جئتِ أنتِ.

أصبحتُ ألاحظ الوقت بعينيكِ، وأخشى الغد إن لم تظهري فيه .

أربكني كيف ينقلب رجلٌ مثلي كان يرى في كل يوم مجرد محاولة للبقاء إلى رجلٍ ينتظر كلمة منكِ ليتنفس براحة ، أنتِ لم تدمَلي جراحي، ولا أدعي أن حضوركِ يمحو الألم الذي تحدثتِ عنه منذ قليل... لكنكِ صرتِ السبب الذي يجعلني أرغب في النهوض كل صباح ومواجهته. أصبحتُ أرى العالم من خلال وجودكِ؛ تصبح المرارة أقل، والخراب أقرب إلى الاحتمال .

كان البحر هائجاً و أصبح أكثر جمالاً، و الأمواج تبدو كأنها تصفق لاعترافك .

وقفتُ أمامك، والبحر خلفنا، والهدنة فوقنا، وصوتك بيننا...

تأملتُ وجهك، كان شعاع الغروب الأخير يترقرق في عينيك ،

وكأن الصدق الذي سكبته أمامي للتو قد أزاح عن صدرك جبالاً من الصمت.

أحسستُ بقدميَّ تتسمران في الرمل، ووراءي كان البحر يهدأ رويداً رويداً، يُرسل خرير أمواجه ليحتضن كلماتي التي تجمعت في حنجرتي .

ابتسمتُ لك، ابتسامةً دافئة لم تكن تحمل هذه المرة أي ألم، بل كل الأمان الذي أهديتني إياه دون أن تدري .

خطوتُ خطوةً صغيرة، وظللتُ أقف على مسافة تتسع لكل تلك الهيبة بيننا، ثم قلتُ وأنا أنظر إلى عينيك مباشرة:

الحرب أخذت منا كل شيء، نعم... لكنها حين أهدتني إياك، جعلتني أسامح الحياة على كل ما فعلته بي .

إذا كنتَ أصبحتَ ترى العالم من خلال وجودي... فأنا لم أعد أرى لي عالماً غيرك يا أنس .

أنت أماني في بقايا هذه المدينة .

أريد أن أقرأ لك شيئاً كتبته لك ليلة البارحة

ـ حسناً أسمعيني اياه

ـ عيناك بنٌّ دافئٌ مُستعذبُ

فيها السكينة و الضياء الأغيدُ

تحكي عن العسل المصفّى لحظةً

و تعود نحو الأرض حين تغرّد

و الشعر كالشفق الأحم اذا ارتقى

فوق الأصيل ، يموج حين يُعربد

و سنا جبينك كالورود تفتّحت

حمراءُ يرويها الحياء الأملدُ

تبدو كرسمٍ في الخريف منقّش

كل الملامح في صفاتك تُعبدُ

فأنا بقربك لا أُبالي بالأَذى

إنَّ الحياة بدفء قلبك توجدُ

ـ جميلة جداً يا وطني ، هيا لنذهب إلى خيمة والدي ، أريد أن أعرفك عليهما

ـ حسناً لنذهب

كنت أسير بجانبك كعادتي لكن قلبي كان يرفرف

توقفت قليلاً ثم سألتني : ما رأيك في هذه الحرب ؟ هل تلومين المقاومة على ما حدث ؟

ـ بالطبع لا ، كيف سنستعيد باقي أرضنا إن لم نقاوم المحتل و نطرده من أرضنا ؟

صدقني يا أنس لو أن الدول العربية وقفت بجانب المقاومة لكانت تحررت فلسطين كلها ، لكن الخذلان كان أقوى من صفعة الإحتلال ، فالحكّام العرب لا يجدون سلاحاً أقوى من التنديد ، أما الشعوب فما زالوا يتصارعون على المقاطعة !

تخيل أنهم تعاملون مع الإبادة على أنها أرقام ! كل هذه الأرواح تحولت فجأة إلى عدّاد و عمليات حسابية !

إن كنت تريد استعادة أرضك فلن يكفِ أن تقف متفرجاً و تدعو الله ، و من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه مثلما اعتدى عليكم ، هذا كلام الله عز و جل فمن هؤلاء الذين يُجرّمون ما قامت به المقاومة ؟!

الحرب لم تبدأ منذ السابع من أوكتوبر، بل منذ أن دخل الصهاينة على أرضنا و احتلوها و ادعوا أن لهم دولة ، ولكن السؤال الأهم ما هي مقومات الدولة يا أنس؟

إنها أرض و شعب و حكومة ، إذا اختل مقوّم واحد من مقوّماتها لم تعد دولة ، الأرض لنا ، و شعبهم من كافة بقاع الأرض ، إذاً أين هي هذه الدولة !

ابتسمت ابتسامة الفخر و كأنك ربحت معركة كاملة ثم قلت :

لكن هنالك الكثير من الناس استشهدوا و العرب يلومون المقاومة على ذلك !

فأجبتك : ألست مؤمناً بالله و قدره ؟ فقلت : بالطبع أكيد

فأردفت قائلة : كل إنسان استشهد كان أجله مكتوباً و سوف يتوفاه الله سواء بسبب هذه الحرب أو بدونها ، و لكن الله أكرمنا وجعل لنا الشهادة سبباً .

لكن هذه الحرب عرّت المسلمين من ثياب الرحمة و الدين ، يطالبون بإرسال الأكفان لنا و كأنهم يرسلون رسالة مفادها انتم موتوا و لا تقلقوا الأكفان علينا ، فكانت هذه الحرب الكاشفة بنظري ، فهمنا أن الشعارات لم تكن سوى شعارات ، و أن زمن المسلمين قد ولّى منذ زمن الصحابة و الأنبياء ، و أن العرب يعشقون أن يرتدوا ثوب العبيد .

لم يقتصروا على أن يكونوا عبيداً للغرب ، بل أيضاً عبيداً لحكّامهم ، و لذواتهم !

تخيل أن يختبرك الله بكيس شيبس أو فنجان قهوة فتفشل !

رمقتني بنظرة إعجابٍ لا تخلو من السعادة .

تابعنا مسيرنا حتى وصلنا إلى خيمة والديك ، كانت والدتك بغاية الرقة و الحنان ، عطوفةٌ و كأن أمومة العالم أجمع جُمِعت في قلبها .

أما والدك ، كان رجلاً حكيماً وهيبته تفرض وجودها من صلابة روحه ، يمتلك نظرة ثاقبة تدرك الأشياء دون أن تتكلم ، تحمل ملامحه ثقل السنين ، و وقاراً يُكسب السكينة في قلب من يلتقيه .

قلت لهم : هذه وطن التي حدثتكما عنها

رحّبا بي بحفاوة و كأنني لست غريبة عنهما ، ربما لأن الجراح التي نحملها جميعاً في هذا المخيم قد جعلتنا عائلة واحدة حتى و إن لم نلتقِ !

كان والدك ينظر إليك من حين لآخر بنظرةٍ يملؤها الفخر و الخوف الدفين عليك ، لم أكن أعرف ما وراء هذه النظرات .

التفت والدك نحوي وقال : يا ابنتي ، من ينجو من هذه الحرب بقلبٍ لم يقسُ ، ويعرف كيف يحب ، فقد انتصر عليها .

حينها أدركت من أين تنبع هذه الهيبة فيك ، و من أين ورثت هذا القلب الذي بحجم مواطن يا أنس ...

جلست قليلاً معكم ثم همست لك بأنه علي العودة إلى خيمتي لأن الوقت تأخر .

تُرافقت خطانا حتى وصلنا. التفتَّ إليّ، وقبل أن أستدير لِأدخل، قلتَ بصوتٍ خافتٍ

أوصلتني إلى خيمتي و قلت لي : أراكِ غداً يا غدي .

دخلتُ الخيمة، لكنّني لم أدخل إلى نومي ، دخلت إلى دوامة أفكاري .

أغلقتُ الشقَّ الصغير في القماش الترابيّ، وجلستُ في العتمة أستمع إلى أنفاس أخوتي المنتظمة، بينما كان صدري يخوض معركةً خفيةً من الذهول والعاطفة.
وضعتُ كفي على قلبي أحاول تهدئة دقاته التي لم تتوقف عن التسارع منذ أن قلت لي : أراكِ غداً يا غدي .

خيمتنا الهشة ، وسقفها الذي تخترقه برودة الليل ، لم تعد تبدو لي ذات المكان الخرب ، كانت دافئة بلهيب كلماتك .

أسندتُ رأسي إلى الوسادة، لكن عينيّ ظلتا معلقتين بضوء القمر الشاحب الذي كان يتسرب من أعلى القماش. .

كنتُ أفكر فيك يا أنس ... في طريقة حديثك الموزونة أمام البحر، وفي النبرة الخافتة التي اختتمت بها ليلتنا .

في تلك الليلة، ولأول مرة في حياتي، صرتُ أنتظر الصباح بشغفٍ طفوليّ .

بدأت أتقلب بفراشي وأنا أردد بيني وبين نفسي بخفوت :

«بل أنت غدي يا أنس... وأنت أماني»

أغمضتُ عينيّ، فظهر وجهك أمامي كما لو أنّك تقف عند باب الخيمة ، وقلتُ في نفسي :

يا الله... كيف استطاع هذا الرجل أن يدخل قلبي بهذه السرعة ؟

استيقظت بنشاطٍ يغمرني في الصبح ، نشاطٍ لم أعهده منذ أن وطأت أقدامنا أرض المخيم .

خرجتُ من الخيمة والأفق يغتسل بضوء الفجر الأول، كان الهواء بارداً، لكنه في صدري كان يتنفس الدفء .

لم تكن الشمس قد أشرقت كلياً بعد، لكنني كنتُ أعلم أن "غدي" قد بدأ بالفعل

رأيتك بعد ساعة تقبل من بعيد بخطواتك الثابتة، وشعاع الشمس الأول يداعب حمرة لحيتك ، ليستقر في مقلتيك .

وقفتَ أمامي وقلت بصوتك الخافت الدافئ :

صباح الخير يا وطني.. أظنك مستعدّة لغدكِ

ابتسمتُ بحياء وأنا أومئ برأسي، فتابعتَ وعيناك تتألقان بذاك البريق الساحر: تعالي معي.. هناك من ينتظرونكِ .

مشيتُ بجانبك حتى وصلنا إلى مساحة صغيرة بين الخيام، حيث تجمع عشرات الأطفال يستقبلونك بضحكاتهم الصافية التي أضاءت عتمة الركام .

جلست بقربك، وكانت أعين الأطفال تتلقفنا بفرحةٍ عارمة .

جلسوا على الأرض الترابية في حلقةٍ دائرية، وجلستُ بينهم وأنت تقف قريباً تتأملني .

فنظر إليّ طفلٌ صغير بعينين واسعتين وسألني بصوتٍ ملؤه الفضول :

وطن ، هل ستحكي لنا قصة اليوم ؟

أومأتُ برأسي و قلت : سأخبركم اليوم عن أسرارٍ عجيبة في هذا العالم... هل تعلمون أن هناك سحراً وشفاءً أودعه الله في المياه ؟

صمتوا جميعاً يترقبون، فتابعتُ وأنا أنظر إلى وجوههم البريئة :

في كل هذه الدنيا، كل المياه التي نعرفها تشبه بعضها في تركيبها ، عدا ماءٍ واحدٍ فقط في أرض مكة، يُدعى ماء زمزم .

العلم يقول إنه الماء الوحيد على وجه الأرض الذي جعله الله قلَوياً خالقاً لمناعةٍ عجيبة، لا تعيش فيها الأمراض ولا تطؤها الأوبئة .

جعله الله هناك ليحضن ملايين البشر الوافدين من كل حدب وصوب، فمن شرب منه حتى امتلأ وتضلّع، كُسِيَ بالعافية والشفاء بأمر الله ، فعند شربه بكثرة يكون لدى جسم الإنسان مناعة قوية ضد الفيروسات .

لأن الفيروسات لا تعيش في البيئة القلوية .

ثم أضفتُ وأنا أبتسم لهم بدفء :

وحتى في الصحراء والبادية، أودع الله عجائب مشابهة في كائناتٍ صبورة كالإبل، جعل في خَلْقها وسوائلها خصائص قلوية فريدة تختلف عن سائر مخلوقات الأرض ، فجميع أبوال مخلوقات الأرض هي سوائل حمضية و شبه ضارة ، بل أن كثيرها (نجس) عدا أبوال الإبل فهو البول الوحيد على هذه الأرض تركيبه قلوي مثل ماء زمزم .

وهو مقوي للجسم و طاهر و غير نجس !

سبحان الله !

لتكون معجزته هذه آيةً على قدرته ورحمته .

مال أحد الأطفال برأسه وسألني بشغف :

وما هو التضلُّع يا وطن ؟

أجبته و أنا ألف بنظري عليهم جميعاً :

هو أن تشرب كأس ماء بعدد إفرادي و أن تكون معدتك فارغة ، تشرب حتى تملأ بطنك و يرتوي كل ضلعٍ في جسدك .

التفتُّ إليك يا أنس، فرأيتُ في عينيك نظرةً عميقة

فابتسمتُ لك في سرّي، وأنا أعلم أن وجودك في حياتي كان كماء زمزم لقلبي ، شفاءً وتضلّعاً من كوارث الحياة .

قلتُ لهم بصوتٍ مرح ، يكفي هذا لليوم يا صغاري ، ألاقكم غداً بإذن الله .

غادر الأطفال وتلاشى صدى ضحكاتهم بين الخيام، وبقيتَ أنت تكبّل عينيّ بنظرةٍ طويلة .

كان الصمت بيننا مليئاً بالكلام، حتى كسرته أنت حين اقتربت خطوة، وقلت بصوتٍ يفيض دفئاً ورقة :

كيف لمن يطبب أرواح الآخرين أن لا يشعر بكمّ الشفاء الذي يسكبه في قلبي ؟

بابتسامة غلبها الحياء :

في هذا المخيم يا أنس، كلنا نبحث عن شيء يرمم خرابنا... وأنا وجدتُ رمامي فيك

نظرت إلي بشرود و قلت :

لم يتبقَ الكثير على إنتهاء هذه الهدنة ، سأشتاقُ لكِ يا وطني

نظرتُ إليك بنظرةٍ يملؤها الاستغراب و سألتك :

لمَ ستشتاق إن كنا في المخيم نفسه ؟

ترددت قليلاً ثم سألتني :

هل في صدركِ اتساعٌ ليكتمَ سراً ؟

لديّ سرٌّ لم ينطق به لساني لأحد قط سوى والداي ، فهل لي بعهدٍ منكِ أن يظل حبيساً بين ضلوعكِ ؟

ـ بكل تأكيد

ـ حسناً يا وطن ، سأخبرك بكل شيء لعل ذلك يطفئ ما يختلج في أيسري .

حين استُشهِد أخي ، كُنت في الحادية عشر من عمري .

رأيته وهو غارقٌ بدمه و صرخات أمي إلى هذه اللحظة تخترق أذني ، أما والدي فتلك هي المرة الوحيدة التي أراه يبكي و نظرات العجز تحتل عينيه .

و طريقة استشهاد أخي أكثر إيلاماً من فقدانه !

لقد أطلق أحد الجنود رصاصته الأولى في قدم أخي حتى عجز عن المشي ، ثم أطلق أخرى في كتفه ، ثم أخرى استقرت في صدره الأيمن ، ولم يسمحوا لأحدٍ بإنقاذه و بقي ينزف حتى توفي .

لن استطيع نسيان هذا ما حييت .

بعد ذلك بخمس أعوام اعتقل الجنود أخي الثاني وهو بعمر الثامنة عشر .

يزعمون أنه ألقى الحجارة على الجنود ، و حتى الآن لم بخرج و لا نعرف في أي سجنٍ هو حتى الآن .

مر على اعتقاله ثلاث سنوات و أمي تبكيه كل ليلة و والدي يحاول معرفة أي خبرٍ عنه لعله يعرف شيئاً يخمد النار المشتعلة في قلبه .

لذلك قررت أن أتطوع من المجاهدين لنحرر أسرانا و نأخذ بثأر شهدائنا و ربما تكون هذه الحرب شعلةً للتحرير ونستعيد أرضنا .

جئت في الهدنة لأطمئن على والديّ و عند انتهاءها سأعود .

أعدك إن انتهت الحرب على خير و لم تنهيني فسأعود لنتزوج .

أدمعت عيناي و أنا أسمع قصتك ، فكم من الجراح يحمل هذا القلب البريء ؟

أسندتُ رأسي على كتفك و قلت لك بصوت منكسر :

عِدني أن تنجو يا أنس، وعِدني أن تحمي نفسك لأجلي ، و أن تحرس نفسك كما تحرس أسرارك ، فما عاد قلبي يتسع لفقْدٍ جديد ،

انت الشفاء الذي رمّم كل انكساراتي .

ـ أعدكِ يا وطني ، لكن عديني أن تحافظي على والديّ .

ـ أعدك

سرنا كعادتنا نحو البحر ، لكن هذه المرة بخوفٍ كبيرٍ من الفقد .

التفتُّ إليك وقد ثقلت على قلبي أسئلة تشتعل كالمرار، فنظرتُ إلى عينيك البنيتين الثابتتين وسألتك بنبرةٍ يحرقها العتب والوجع :

ـــ لماذا نسي الناس غزة ؟ أين ذهب أولئك الشيوخ والدعاة الذين كانت تعلو أصواتهم بالخطب ؟

ألسنا عرباً ومسلمين مثلهم ؟ كيف ينام العالم وتصمت ألسنتهم ونحن نعجن خُبزنا بالدم كل يوم ؟

سكنت ملامحك الصلبة، ونظرتَ إلى أمواج البحر بعمقٍ وكأنك تستحضر تاريخاً طويلاً من الخيبات، ثم التفتَّ إليّ وبصوتٍ هادئ يتسلل فيه الأذى والنضج، أردفتَ قاطماً الحيرة من قلبي :

يُقال أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد قال :

سيأتي عليكم زمان يكون فيه شيخكم آثم، وعالمكم منافق، وصغيركم لا يحترم الكبير، وغنيكم لا يساعد الفقير .

يطالبوننا بتحرير وطننا و حين هببنا لتحريره ، لاموا المقاومة ، و لم يكتفوا بذلك فقط ، بل و جرّموها !

يشاهدون الأسرى خلف القضبان يُتنكّل بهم ، و يعذّبون كأنهم ليسوا بشراً من دمٍ و روح ، يرون شبابنا كيف تُسرق أعمارهم ما بين قتلٍ و تهجير و أسر و احتلال ، ثم نُصبح نحن الجُناة !

و هكذا يا أنيس روحي تتالت الأيام يوماً بعد يوم لنجد نفسنا في آخر يومٍ في الهدنة . كان قلبي يضيق و أنا أعلم أنه اليوم الأخير لك معي .

التقينا للمرة الأخيرة ، لكن المرة هذه عند شاطئ البحر بعيداً عن الأطفال و القصص .

كنت قد سهرتُ الليل بطوله وأنا أكتب لك قصيدةً لأهديك إياها ، كانت السحب تتعانق في السماء ، و أمواج البحر تتلاطم ، و العصافير المغردة تحوم فوقنا

بدأت بإلقاء قصيدتي لك بصوتٍ ممزوجٍ بالحب :

يا دافئ السيماء كيف سحرتني

و بأي ألوان الخفاء كتبتني

عينين من لون البنادق أبحرت

فيها الشموس فما طرفت و صنتني

و على الجبين لهيب شعرٍ ثائرٍ

وهّاجُ جمرٍ في المساء أرقّني

و اللحية اللهباء طال بزوغها

فازداد سحرك هيبةً و فتنتني

حمر كأطراف المغيب اذا ارتمى

فوق التلال فهزّني و أسرّني

يا من جمعت البُندقية مع الرؤى

و كرمت ألوان الهوى فهديتني

أثنيت كثيراً على قصيدتي ، و خبأت الورقة في جيبك كأنها شهادة ميلادك في هذا المخيم ، ابتسمتَ تلك الابتسامة الدافئة التي تضيء وجهك، وقلت لي بصوت ينساب بهدوء كهدير البحر :

لم تكن مجرد أبيات كتبتها، بل كانت مرآة رأيت فيها نفسي لأول مرة بعيني امرأة تعيد رسم ملامحي وثورتي بالحب .

أمضينا النهار كله معاً ، أنظر إلى عينيك و أغرق فيهما .

فكل منا يا أنيس روحي يقاوم بطريقته ، انت تقاوم محتلاً ، وانا أقاوم عينيك .

نظرت لي نظرة عشقٍ و قلت :

النهار يرحل يا وطن... لكنني للمرة الأولى في حياتي لا أخشى ظلام الليل، طالما أنني أرى في عينيك النور الذي يضيء كل عتمتي

عدت إلى خيمتي و أنا أشعر أن شيئاً ما سيحدث ، فقد انقبض قلبي لأول مرة في حياتي .

أملٌ فوق جثمانٍ من رماد

في صباح اليوم التالي ، مع انبثاق أول خيطٍ من ضوء الصباح ، انكسرت تلك السكينة الوردية التي غفونا عليها .

انتهت الهدنة المؤقتة فجأة، وانشقّ سكون الفجر على صوت انفجارٍ هزّ أركان المخيم، ليعود القصف أشدّ ضراوة مما كان .

تناثر الغبار بين الخيام، واختلطت صرخات الأمهات بذعر الأطفال وهم يركضون في كل اتجاه .

انقطعت أحلامنا الخاطفة عند حدود ذلك الشاطئ، واستيقظنا على الواقع القاسي الذي نعيشه؛ واقع الحرب التي لا تمنح أحداً وقتاً كافياً للحب .

خرجتُ من خيمتي والذعر يأكل أطرافي، أفتش بين الدخان والركام عن وجهك... لم أكن أخشى القصف بقدر ما كنت أخشى أن يسلبني ذلك الوعد الذي قطعته لي بالعودة .

بحثتُ عنك في كل زاوية، عند خيمة الإسعاف، وبين جموع الصارخين ،

هرعت راكضة نحو خيمة والديك و أنا أفتّش عنك بين الوجوه .

كنت أصرخ باسمك والرياح المحملة برائحة البارود تردّ عليّ بالصدى، حتى استوقفتني يدٌ ترتجف لوجهٍ آلمه الوجع، ونظر إليّ بعينين ملأهما الأسى وهو يهمس بنبرةٍ كُسِر فيها كل أمل :

لقد استشهد أنس !

توقف الزمان في تلك اللحظة ، لم أسمع صوت القصف، ولا صرخات الأطفال، ولا انهمار الركام ، وصرخت روح صامتة في أعماقي :

كيف ترحل يا أنس وأنت الذي وعدتني بالعودة !!

سقطت الكلمات على رأسي كالصاعقة، لكن عقلي رفض أن ينساق لشهادة الغياب. تلفتُّ حولي وسط الغبار المتصاعد، والإنكار يصرخ في صدري بكل قوة .

قبضتُ على قميص الرجل الذي أخبرني بالخبر، ونظرتُ إلى عينيه المصدومتين بنبرةٍ جافة يختنق فيها الصراخ:

أين جسده؟ دلوني على أنس ... أين هو الآن ؟

خفض الرجل رأسه، وتراجع خطوة إلى الخلف كأنه يفرُّ من الثقل الذي ينوء به لسانه، ثم قال بصوتٍ متهدج كسره العجز :

كان في قلب القصف يا وطن... عند الموقع الذي أصابه الصاروخ المباشر .

ذهبنا لننتشله، فلم نجد له جسداً... تبخر كل شيء هناك ولم نجد منه شيئاً .

تراجعتُ إلى الخلف، وسقطتُ على ركبتي فوق التراب المخلوط بالبارود .

لم تبكِ عيناي، بل امتلأ صدري بصمتٍ أعتى من صوت القصف حولنا .

كيف يُقال عن رجلٍ استُشهد وهو لم يترك خلفه حتى أثراً لنودعه؟

أم أن الأرواح التي تحمل كل هذا النور لا تسعها الأرض حين ترحل؟

وقفتُ فوق جدارٍ مكسور أرقب الموضع الذي أشاروا إليه... لم يكن هناك سوى حفرةٍ عميقة، ورمادٍ يذروه الهواء، ورائحة بارودٍ تخنق الأنفاس.

كان الجميع من حولي يتسابقون في مواساتي، يربتون على كتفي بكلماتٍ باردة عن العوض والصبر والشهادة. لكن عقلي كان يرفض أن يسلّم المقاليد، وقلبي يصرخ في أضلعي: كيف يرحل رجلٌ كانت أسراره بالأمس تنام في صدري؟ كيف يغيب صاحب اللحية اللهباء دون أن يترك للريح أثراً من عطره؟

جلست على الأرض ، كنتُ أردد في سري، بلسانٍ لا ينطق إلا بيقين :

ما زلتُ أرقبُ بابَ الدارِ في ولهٍ

لعلَّ طيفاً منَ المشتاقِ قد وصَلا

أأبكيهِ؟ أم أظلُّ العمرَ منتظِرا

فربَّ غائبٍ قد عادَ مُكتَمِلا

قالوا: تَوَلّى ومَاتَ الحُبُّ في دَمِهِ

فكيفَ أَرْثِي مَنْ بالظَّنِّ ما كَمُلا؟

لو كانَ ماتَ لَقالَ المَوْتُ لِي خَبَرا

ورَفَّتِ روحِي على جُثْمانِهِ قُبُلا

فإنْ حَيِيتَ فَرُدَّ الرُّوحَ في جَسَدِي

وإنْ قُتِلْتَ، سيبقى النبض مشتعلا

مسحتُ الغبار عن ثوبي، وقمتُ مسندةً ظهري إلى الجدار المتبقي من الخيمة.

لم أصرخ، ولم أزهق دمعة واحدة أمامهم... فكيف أرثيك يا أنس، والموت نفسه لم يجرؤ على أن يأتيني ببرهان؟

سأنتظرك ، لأنك رجلٌ لا ينكث وعداً قطعه أمام امرأة ....

أسرٌ على قيد الحرية

الفصل السادس

حصارُ الملامح

منذ أن غبت و أنا أرى الحرب بداخلي ، كيف يمكن أن أكون قد نجوتُ بذكراك.. لتضيع أنت مني في الركام ؟!

بينما يتجمع نساء المخيم في زاوية الخيمة يتبادلن الهمس بلغةٍ أشبه بالرثاء. لا يعلمن أنني لا أقاوم الدمع كبرياءً، بل لأن القلب الذي ينبض في صدري يرفض أن يتقبل القصة .

يجلسون من حولي، بوجوهٍ شاحبة وأفواهٍ يقطر منها العزاء المُرّ، يهمسون أنك رحلت، وأن الأرض ابتلعت أثرك تحت هذا الركام ، لكنني أراهم من وراء حجابٍ من الشك، أسمع كلماتهم كأنها لغة غريبة لا تفهمها روحي .

كيف لهم أن يفهموا أن الرجل الذي زرع في صدري وعداً منتظراً لا يمكن أن يتبخر في الهواء؟

يقولون إن الغارة لم تترك أثراً، وأنا أقول إن عدم وجود أثرك هو البرهان الوحيد على بقائك !

أنا لا أعيش على الوهم يا أنس، بل أعيش على تلك اللحظة التي نظرتَ فيها إليّ بعينيك البنيتين وقلتَ لي إن الحب في أوقات الحرب يكتب بالبقاء لا بالرحيل.

يحسبون أنني أعيش حالة صدمة ستزول مع الأيام، ولا يعرفون أن حبك زرع فيّ ينابيع من اليقين لا تجف .

أشعر بك في كل زاوية من المخيم، أراك تهز رأسك وتطلب مني ألا أصدق إشاعة الفقد ، إنهم ينسون يا أنس أن الجثمان الذي لم يُحمل على الأكتاف ليس موتاً، بل هو غيابٌ مؤقت لرجلٍ يتنفس في قلبي

خارج هذه الخيمة المثقوبة، لم تكن الحرب مجرد قصفٍ يتردد صداه في الأفق، بل كانت كائناً ضارياً خنق المخيم بأكمله.

الهواء لم يعد هواءً؛ إنه مزيجٌ ثقيل من غبار الإسمنت المتفحم، ورائحة الكبريت التي تلتصق بالحناجر تجعل كل شهيق كأنه ابتلاع لشرارة حارقة .

الشوارع الضيقة التي شهدت خطانا يوماً استُبدلت بتلالٍ من الركام المتداخل، أثاث منازل مهدمة، مئذنة المسجد المكسورة تبدو كأنها أطرافٌ مبتورة .

والماء أصبح أمنيةً بعيدة المنال، بينما الزنانات لا تتوقف عن أزيزها فوق رؤوسنا ليل نهار، تحرم الليل من سكونه وتذكرنا في كل ثانية بأن الموت يتربص خلف كل سحابة دخان .

كانت الحرب تخنق الأجساد والمكان، تُضَيّق المساحات حتى لم يعد للحيّ منا سوى موطئ قدمٍ فوق الركام ، حتى بدأ الناس يكتبون أسماءهم على كافة أطراف أجسادهم حتى يسهل التعرف على الجثث !

ولم تكن المستشفيات بعيدة عن هذا الخناق؛ بل كانت النقطة التي تتكثف فيها كل أوجاع المخيم دفعة واحدة .

لم تعد أروقة المستشفى تتسع المرضى أو الجرحى، بل استحالت ممراتٍ ضيقة يختلط فيها صراخ الأطفال بأنين الكبار، ويتزاحم فيها الخوف مع الموت .

سيارات الإسعاف لم تتوقف لحظة واحدة عن أزيرها المتقطع، تحضر بأعدادٍ تفوق قدرة المكان على الاستيعاب؛ تأتي محملة بأجسادٍ مفتتة

كانت المستلزمات الطبية تنفد كأنها تُسحب من شريانٍ يمتزج بالدم ، لا ضمادات تكفي لتضميد الجراح، ولا أدوية تخفف صدمة الألم، والأطباء يهرولون بوجوهٍ أرهقها السهر وعيونٍ ملأها العجز، يفاضلون بين حالة وأخرى في خياراتٍ أحلاها مرّ .

الأسرة ملأى، والأرضيات غُطيت بالمصابين، حتى غدت أكياس الجثث البيضاء الصف الموازي للممرات، يرقبها ذووهم بذهولٍ يقطع الأنفاس .

وسط هذا الطوفان من الدماء والأشلاء التي تتوافد بلا انقطاع، كنتُ أنظر إلى وجوه الشهداء والجرحى المحمولين على الأكتاف وفي النقالات المتسارعة... أبحث في كل وجهٍ غطاه الغبار عن ملامحك، يرتجف قلبي في كل مرة تقترب فيها سيارة إسعاف جديدة، وأعود وأقبض على يقيني أنك لستَ بين هذه الجموع ، ولن تكون .

و رغم ما أبتلع الناس من ألم و اكتست حناجرهم صرخات الرعب و الخوف ، دخل جنود الإحتلال المستشفى كما يدخل الظلام من شق صغير .

فتّشوا الجميع، المرضى ، الجرحى ، النازحين و الأطباء ، حتى الشهداء من يسلموا من التفتيش .

أمسكوا آدم من ذراعه ، و وضعوا شريطة سوداء أغموا بها عينيه ، و جروه أمام المرضى ، و أمام ليان التي كانت تساعده في غرفة العمليات .

قبل ما تركض خلفة و تصرخ أمسكتها طبيبةٌ من ذراعها و وضعت يدها على فم ليان لتسكتها .

كان الاعتقال يشبه الخطف .

أخذوه إلى سجن عوفر، و وضعوه في زنزانةٍ أشبه بتابوتٍ شاقولي، مساحتها مترٌ بمتر .

غرفةٌ لا تتسع إلا لخطوةٍ واحدة ، جدرانها المتقاربة لا تمنحك ترف التمدد أو الالتفاف، جدرانها أربعة تتقارب بصرامة لتطبق على صدرك ، مساحةٌ شحيحة كأنها جُهّزَت لتكون مكاناً للوقوف لا للعيش ، لو مددتَ يديكَ للامست الجدارين المتقابلين في اللحظة ذاتها .

مكانٌ يفرض عليك أن تظل واقفاً أو منكمشاً على ذاتك .

كان السجنُ عالمًا آخر، عالمًا لا يشبه شيئًا مما نعرفه خارج أسواره.

مكانٌ تُطفأ فيه الشمس، وتُلغى فيه الأيام، ويُمحى فيه الزمن حتى يصبح الإنسان معلّقًا بين ليلٍ لا ينتهي ونهارٍ لا يأتي .

في الداخل، لا أحد يعرف ما يحدث في الخارج ، لا أخبار، لا أصوات، لا رسائل، لا ملامح للعالم .

حتى أيام الأسبوع تفقد معناها، ويصبح الوقت كتلةً معتمة لا يمكن قياسها .

الساعة هناك ليست عقربًا يتحرّك ، بل وجعٌ يتكرّر .

كان السجناء يعيشون في ظلامٍ دائم ، لا شمس تدخل، ولا نافذة تُطلّ على شيء،

كأنّ الضوء نفسه محكومٌ بالمؤبّد .

أما الطعام، فكان شيئًا لا يُسمّى طعامًا ، فتاتًا يُلقى كما تُلقى الأشياء التي لا قيمة لها،

ووجباتٍ لا تكفي لإبقاء الجسد واقفًا،

حتى صار الجوع جزءًا من هوية المكان .

انتشر الجرب بين الأجساد كما ينتشر الحريق في الهشيم، حكّةٌ لا تهدأ، وجلدٌ يتآكل، ولا علاج يُسمح به، ولا دواء يدخل، ولا طبيب يقترب .

كان المرض هناك يُعامل كجريمة ، والتألم كترفٍ لا يحقّ لأحدٍ أن يطلبه .

أما الاستحمام، فكان ممنوعًا، كأنّ الماء نفسه محظورٌ على من فقدوا حريتهم .

تتراكم الروائح، وتثقل الأجساد، ويصبح العرق جزءًا من الجلد، والقذارة جزءًا من اليوم .

في غرفة التحقيق، لا يوجد كرسيّ للراحة، ولا جدارٌ يمكن الاتكاء عليه ، ولا مساحةٌ للوقوف كما ينبغي .

يُجبر المعتقل على الجلوس بطريقةٍ تُنهك الجسد، أو الوقوف ساعاتٍ طويلة حتى يشعر أن قدميه لم تعودا جزءًا منه .

الأسئلة هناك ليست أسئلة عادية بل محاولاتٌ لانتزاع ما لا يملكه المعتقل أصلًا .

تُطرح بحدة، وتُعاد بصوتٍ أعلى، وتُكرّر حتى يفقد الزمن معناه .

وفي كل مرة يصمت فيها المعتقل، يُعامل الصمت كجريمة، وكأنّ عدم الإجابة اعترافٌ بحد ذاته !

ثم تأتي فقرة الكلاب المدربة لتعذيب الفلسطينيين ، يجلسون المعتقلين على ركبهم وهم مكبلين ومعصومي الأعين ، لتمارس عليهم اعتداءات متكررة من قبل الكلاب ، اما هجوم عليهم ، او تبوّل الكلاب فوقهم ، او اعتداءات جنسية !

أما الاعتداءات الجنسية فلها أنواع شتى، جنود تعتدي على السجان ، كلاب تعتدي ، حتى العصا أصبحت من المعتدين !

لم يكتفوا بذلك فحسب ، و إنما استخدموا العذاب النفسي .

أخبروا آدم أنهم قد قصفوا عائلته و تم استشهادهم جميعاً !

كان آدم جاف الملامح، يتنفس ببطءٍ شديد كأنه يتنفس الشوك، وقلبه يصرخ بصوتٍ لا يصله أحد سوى الجدران الصامتة .

لقد تركوا جسده حياً داخل القفص، لكنهم أخذوا منه كل ما كان يجعله ينتظر الحرية .

أقسى ما في الأسر ليس السلسلة المفروضة على المعصم، بل أن تُذبح في مكانك دون أن تملك حق إلقاء نظرة وداع، أو أن تطبع قبضة أمل على جبين حبيبتك، أو تلمس كفّ أمك لتقول لها إنك بخير .

الجدران التي كان يراها بالرغم من قسوتها مجرد سجنٍ مؤقت، أصبحت فجأة هواءه الوحيد ومقبرته الأبدية .

خلع آدم أمله كما يخلع المريض ثوبه الأخير ، لم يعد يكترث متى يُفتح الباب، ولا كم بقي من سنين عقوبته التي يجهلها ، ولا إن كانت الشمس ستشرق غداً أم ستغيب للأبد .

لقد أدرك بصفاءٍ مريع أن الحرية التي كان يقاتل من أجلها، والبيت الذي كان يبنيه في مخيلته ليلاً ليقاوم به قسوة السجان، قد ابتُلِعا تحت الأنقاض مع أهله .

استقر في قاع السجن بجسدٍ خاوٍ، ينظر إلى الفراغ بعينين من زجاج، بلا حركة ولا انتظار .

و في عتمة سجن عوفر ، لم يكن آدم وحده من يحمل قسوة السجن ، كل مساء، عند هبوط الغروب، كان الصوت ذاته يتردد في الممر الضيق، يخترق الصمت المثقل برائحة الرطوبة والحسرة : "دير بالك عليها يا صاحب النصيب..."

صرخة حادة مبحوحة تجوب السجن وتتلاشى بين الجدران .

عُرِفت حكايته لاحقاً؛ كان أسيراً خَطت أقدامه السجن في اليوم ذاته الذي ذهب فيه لطلب يد الفتاة التي أحبها، ليجيء الخبر بعد أشهر من أسرى آخرين : شاب آخر تقدم لها ووافق أهلها عليه .

كان يصرخ بملء حنجرته ينادي رجلاً غريباً لا يعرفه، يوصيه بامرأة لم يعد يستطيع الوصول إليها ، نداء عاجز يخرج من بين الدموع، مثقلاً بالأسى والموت البطيء .

كان آدم يستند بظهره إلى الجدار الساحق، يستمع إلى تلك الصرخة المكررة في كل غروب، فيشعر أن السجن لم يعد مجرد قضبان، بل مقبرة كبيرة يتشارك فيها الرجال حسراتهم ، واحد يندب عائلة طمرت تحت الركام، و حبيبةً يجهل مصيرها إلى الآن ، وآخر يوصي غريباً على حلمٍ سرقه الأسر .

بينما كان آدم يغرق في قاع السجن الساحق، يقتات على عتمة الأسى وتتردد في مسامعه صدى صرخات الرجال كمرثيةٍ أبدية للذين سُرقت أحلامهم...

كانت الحياة على الضفة الأخرى من النزوح تُمارس عنادها المذهل، وتنسج من قلب الخراب معجزةً لم يحسب لها أحدٌ حساباً .

جثا الموت ، و قام الشهيد

في قلب المخيم، حيث يتكدس الخوف وتتعالى أصوات الألم، بزغ خبرٌ شقّ سكون الهدنة المؤقتة والهشة كشعاع شمسٍ يثقب سقف خيمةٍ مهدمة؛ كانت كيان حاملاً .

نظر سِوار إلى وجهها الشاحب، وإلى يديها اللتين ترتجفان بين الخوف والرعشة، وشعر بمزيجٍ مريب من الفرح الخارق والذعر المطبق .

طفلٌ ينبت في أحشائها وسط هذا الركام ؟

بين شح الطحين وزمهرير الخيام وأزيز الطائرات الذي لم يهدأ .

سقطت دمعةٌ دافئة من عين كيان، دمعة ارتباكٍ شفافة لا تدري إن كانت ابتسامة أملٍ في هذا الجحيم أم خائفاً من غدٍ مجهول .

لكن سوار اقترب منها، واحتضن رأسها إلى صدره بصلابةٍ كأنه يختبئ بها وتختبئ به، ولأول مرة منذ أشهر، انفرجت شفتاه عن ابتسامةٍ حقيقية مسحت عن وجهه غبار التعب .

لقد أدرك في تلك اللحظة أن هذا الطفل ليس مجرد مصادفة، بل هو ردهما الشخصي الحاسِم على كل هذا الدمار، وبصمة حياة ترفض أن تمحى .

غير أن هذه الفرحة الشفيفة سرعان ما تلبست بدعائم الحذر القاسي .

أمسك سوار بكتفيها بصلابة ونبرةٍ قاطعة لم تعهدها منه من قبل، وقال وهو ينظر في عينيها بثبات :

كيان ... عملكِ الميداني ونقل الأخبار يتوقف من هذه اللحظة .

لا خروج، ولا إجهاد بعد اليوم .

حاولت أن تعترض، أن تذكره بحاجة الناس حولهما في المخيم وواجبها تجاههم، لكنه أوقف كلماتها بلمسةٍ حانية على جبينها أتبعها بكلماتٍ كالعهد :

هذا الطفل هو أمانتنا الوحيدة التي يجب أن نحافظ عليها وسط هذه الحرب... وإن كان عليّ أن أمنعكِ من العمل ، فسأفعل .

مكانكِ هنا، وأنا أحرس خطاكِ حتى يأتي هذا الصغير إلى الدنيا .

أخفى عنها التهديدات التي تلقاها بالقتل في حال استمراره بالعمل ، و نشره للحقيقة ، و قرر أن ينضم إلى خيمة الصحفيين بالقرب من أحد المستشفيات .

استقر هناك و كان يزور كيان بين الحين و الآخر ليطمئن عليها .

تسلل سِوار في قلب الليل بلا موعد مسبق حيث رُكنه الآمن في آخر جمعة وآخر اجتماع، زيارة مفاجئة بعد غياب لأكثر من شهر، باغت فيها زوجته كيان التي وجدته أمامها بذراعيه المُشرعتين كأنهما العالم بأسره، بعد ساعات همّ سِوار بالمغادرة، كل خطوة كان يبتعد فيها عنها كانت تشعر كأن سكينا ينغرس في قلبها، وحين بلغ الباب، التفت إليها وقال مبتسما :

"موعدنا يوم ميلادك، سأعود وفي يدي هدية لك"

ضحكت كيان على استحياء فهي تعلم أنه كان يصنع من مناسباتها طقسا مقدسا، وشيعته بنظراتها حتى اختفى .

مر يومان على اللقاء ليستشهد سِوار إثر غارة جوية إسرائيلية استهدفت خيمة للصحفيين أمام مجمع الشفاء الطبي ، قبل عيد ميلادها بأربعة أيام ، حتى جاء يوم ميلادها على هيئة يوم عزاء، لم يأتِ فيه سِوار بهديته، بل عاد محمولا على الأكتاف بلا صوت ولا هدية ولا مفاجأة ولا عناق !

كأن دمه يأثر من الصمت و الخذلان !

ها قد اكتمل نصره بالرحيل ليكون آخر الفصول هو أول الخلود !

دقيقةٌ واحدة فقط هي المهلة التي مُنحت لكيان كي تودع حبيبها وداعا أخيرا، صاحت فيهم :

"افتحوا الكفن أريد أن أرى وجهه وأقبل وجنتيه"

لكن من حولها رفضوا، فسِوار "بلا عينين"

اجهشت كيان بالبكاء وهي تتحسسه من فوق الكفن،

"جسده بارد، لحمه طري".

لم تتمكن في هذه الدقيقة سوى أن تهمس في أذنه سؤالاً واحداً :

أين وعدك لي بأن نموت معا كي لا يتحسر أحدنا على الآخر؟ لم نتفق على هذا يا حبيبي، ألم تعدني بالرجوع يوم ميلادي ؟!

وضعت يدها على بطنها تبكي طفلاً لن يعرف أباه!

بعد أن خيّم صمتُ العزاء على الخيمة، وبعد أن شهدتُ كيف يُطوى جثمان "سوار" في دقيقةٍ واحدة ويُسلَّم للتراب، أدركتُ أن الكلام مع البشر لم يعد يجدي نفعاً، وأن شرح يقيني للذين يحيطون بي بذعرهم أضحى عبئاً لا أطيقه.

سحبتُ كراسة قصيرة من بين بقايا حقيبتي الناجية، وبدأتُ أكتب .

لم أكن أكتب مذكراتٍ أندب فيها حظي، بل كنتُ أكتب رسائل أليفة، دافئة، وطافحة بك كل ليلة ....

أكتب عن المخيم ، و تزاحم المواطنين على المساعدات التي يرمونها بالبحر بحجة الخطأ ، لتكون معظمها قد فسدت بسبب المياه !

كنتُ أخبرك فيها عن رائحة الخبز المحترق في المخيم، عن ضحكة كيان المخنوقة وهي تحتضن طفلها الخفيّ في أحشائها، وعن البحر الذي ما زال ينتظر خطواتنا معاً كي ينغسل من غبار البارود .

أكتب لك الشعر لعله يعيدك إلي ، كتبتُ ذات ليلةٍ قصيدةً تشرح ما بداخلي :

قالوا: حبيبُكِ قد مضى، فتجلّدي

فبكيتُهُ، والقلبُ قالَ: لعلَّهُ

ما زلتُ أفتحُ للغيابِ نوافذي

وأقولُ: لعلّ الشوق إليّ يشدّه

وأضمُّ ثوبَ الليلِ أبحثُ في الدجى

عن صوتِه، عن قلبٍ ضاع بعدهُ

أرتجي وصل الحبيب لليلةٍ

لعلَّ بابَ الريحِ يحملُ نبأهُ

إن مر طيف في الظلام رأيته

أيجيءُ ؟ لا أدري ، أيسبقُ ظلَّهُ؟

وأقولُ: يا قلبي تمهَّلْ لحظةً

فلعلَّ في طيِّ الرجاءِ محلَّهُ

ما زلتُ إن مرَّ المساءُ أراقب

خطوَ السكونِ، لعلَّ فيهِ خطوه

أقف هناك، أراقب طائرتي وهي تتراقص بين سحب الدخان الرمادية وزئير الزنانات، أطفال المخيم يرقبونني بذهول؛ بعضهم يبتسم لصنيعي، وبعضهم يظن أنني فقدتُ عقلي أخيراً من هول ما رأيت .

لكنني وحدي كنتُ أعلم جيداً أنني لا ألعب... كنتُ أمدّ شرياناً حياً وحيداً بين قلبي وبينك، أربط به روحي برجلٍ أرفض كلياً أن أعترف بأن الأرض قد ابتلعته .

من عتمة السّجن إلى نور عينيكِ

الفصل السابع

انكسار السجّان و وفاء الوعد

بعد اشتداد الحرب ، و ازياد الأرقام على حسب تعبيرهم في نشرات الأخبار وكأننا مجرد خانات في جدول ، بدأت النقاشات تدور أخيراً حول إيقاف الحرب و تبادل الأسرى .

هذه المرة كان الاتفاق حول إنهاء الحرب واضحاً، لكن من يعيد لنا سِوار ليبث خبر إنتهاء الحرب بعد أن صُمّت التغطية ورحل بلا عينين؟

من يعيد آدم لليان ؟

سيتوقف عدّاد الموت ليبدأ عدّاد القهر بالعمل !

خلال هذه الأيام التي اشتد فيها طحن الحرب وخفتت فيها أصوات الرجاء، كنتُ أتآكل من الداخل ببطءٍ لا يراه أحد.

الجميع هنا يراقبون شاشات التلفاز، ينتظرون أرقام التبادل وخبر إعلان الهدنة، أما أنا فكنتُ أراقب وجهي في انعكاس زجاج النوافذ المكسورة، ولا أعرفني .

الحزن الذي جاهدتُ طويلاً كي أطرده عن عتبات قلبي، لم يعد يكتفي بالمكوث في الصدر؛ لقد تسلل إلى عينيّ واستقر فيهما كغيمةٍ سوداء ثقيلة ترفض أن تمطر.

أصبحتُ أنظر إلى الأشياء من طيات غشاوةٍ دافئة من الدموع المجمدة .

في عينيّ يا أنس حزنٌ أملس، بارد، يشبه لون الأسفلت بعد القصف .

حزنٌ يكشف للجميع أنني، رغم كل الطائرات الورقية التي أطلقها في السماء ورغم تظاهري باليقين، أعيش دهشة المصدوم الذي يحاول ألا ينهار أمام المخيم و صغاره

كان الإعلان عن قُرب إيقاف الحرب يشبه مخدّراً مسموماً؛ حقنة أملٍ زادت من هشاشتنا قبل أن تهوي الساطور على أعناقنا.

ظننتُ أن القصف سيخفت، أن السماء ستتوقف عن التقيؤ بالبارود، لكنّ الذي حدث كان العكس تماماً .

اشتد القصف بتوحشٍ غير مسبوق، وأصبحت السماء حمرةً قانئة تشتعل بلا هدوء. لم تكن الغارات مجرد ضرباتٍ متفرقة، بل كانت زلزالاً متواصلاً يطحن ما تبقى من الركام فوق الركام، ويمسح معالم المخيم كأنهم يريدون حرق الخرائط قبل أن تتوقف أجهزة التوقيت.

كانت الطائرات تحوم بجنونٍ أشبه بهستيريا الأيام الأخيرة، والأرض تهتز تحت أقدامنا كأنها تلفظ من عليها.

أدركتُ حينها أنهم لا ينهون الحرب... بل ينهوننا نحن قبل أن تنتهي!

اتفقوا أخيراً على التفاصيل... اتفقوا على عدد شاحنات المساعدات التي ستدخل القطاع، وعلى قائمة الأسماء التي ستخرج من الزنازين.

كانت الأخبار تُتلى بصوتٍ آلي جاف عبر مذياعٍ قديم يلتف حوله العشرات في المخيم .

أرقامٌ متراصة عن عدد أطنان الطحين، وعدد الخيام، وأعداد الأسرى الذين سيُفرج عنهم .

كم هو مرعب أن تُختصر أرواحنا، وعذابات سنواتٍ من القهر، في "قوائم" يُفاوض عليها غرباء!

بالنسبة لي، لم يكن إيقاف الحرب يعني الاستسلام للانتظار، بل كان يعني بداية المعركة الحقيقية.

كنتُ أنتظر لحظة صمت الطائرات وانقشاع غبار القصف لسببٍ واحد فقط: كي تبدأ قدماي رحلتهما الأبدية.

كنتُ أحدثك في سري يا أنس وأنا أربط شريط حذائي الممزق:

"لتتوقف الحرب إذاً... ليتوقف هذا الجحيم كي أخرج وأبحث عنك في كل شبرٍ من غزة."

تخيلتُ نفسي وأنا أمشي بين الأزقة المهدومة، أرفع الحجارة بيديّ هاتين، أفتش تحت كل ركام، أسأل كل جدارٍ باقٍ، وأصرخ باسمك بين البيوت المفخخة بالصمت. سأبحث عنك في أزقة الشجاعية، بين بقايا الشاطئ، وعلى طول الشارع الممتد نحو البحر... سأمر على كل مشفى، وكل خيمة، وكل حارةٍ غيّرت الحربُ ملامحها.

إن كانوا يتفاوضون على أرقام الأسرى وشاحنات الطحين، فأنا قد أعددتُ قائمتي الخاصة... قائمة ليس فيها سوى اسمٍ واحد، وسأجوب غزة قاطبةً حتى أستعيدك من بين فكي هذا الخراب .

في صباح اليوم التالي ، تحديداً عند الساعة الثامنة و النصف

توقف أزيز "الزنانات" التي رافقت أنفاسنا لأشهر، واختفى صفير الصواريخ المفاجئ.

انتهت الحرب أخيراً ، كما يزعمون .

توقفت شلالات الموت عن الهدر و أعلنت السماء حدادها على الأرواح التي أُزهقت.

كان السكون الذي حلّ عند الثامنة والنصف صباحاً مرعباً حدّ الخنق؛ صمتٌ أخرس، كأن العالم كله احتُجز فجأة داخل غرفةٍ عازلة للصوت. لم نكن قد اعتدنا

على هذا الهدوء؛ كانت آذاننا تطنّ بفراغٍ ثقيل، ونبضات قلوبنا هي الصوت الوحيد الذي يتردد في المدى .

خرج الناس من بين الشظايا والخيام مثل أطيافٍ خَرَجت للتو من باطن الأرض ، يهتفون و يزغردون ، و ينشدون الأغاني الوطنية .

تحرك جميع سكان القطاع نحو المفارق الرئيسية لاستقبال الأسرى الذين يجهلون هويتهم بسبب انقطاع شبكات الإنترنت .

أقبلت الحافلات من بعيد نحو مجمع ناصر الطبي في مدينة خان يونس، و امتلأ الفضاء بشهقاتٍ شائكة .

ركض الناس نحو الزجاج المغبر ، يلوحون بأيديهم من خلف النوافذ و يصرخون بالأسماء التي يجهلون إن كانت موجودة في القوائم أم ستبقى معلقة في العتمة .

كان مشهداً يكسر القلب؛ أمةٌ كاملة تقف على أطراف أصابعها ، تستقبل الأسرى و ترتقب حرية محفوفة بالعمى .

ترجل آدم من الحافلة بخطواتٍ ثقيلة، كأنه يجرّ سلاسل السجن وراءه على الأسفلت المكسور.

كانت عيناه مطفأتين تحملان نظرةً يكتسيها الأسى .

رجلٍ اقتنع في عتمة الزنزانة أن العالم خارج الأسوار لن يختلف عن داخلها .

كان يمشِي بين جموع الناس الشاحبة كأنه جثة تسير ، وفجأة... شقّ الزحامَ صوتٌ مبحوح، نداءٌ دافئ كان يظنه مجرد وهمٍ يراوده في زنزانته :

"آدم!"

تسمر في مكانه. خُيل إليه أن عقله بدأ يفلّت غرزه الأخير. التفت ببطءٍ شديد، كأنما يخشى أن يتحول الصوت إلى هباء إن تحرك بسرعة.

وهناك... عند حافة الشارع المهدوم، لم تكن "ليان" وحدها.

كانت تقف وهي تنشج بالبكاء، وإلى جانبها والداه ، وإخوته الذين جزم في سِرّه لأشهرٍ طويلة أنهم وُوروا الثرى!

ساد ذهولٌ صامت في عيني آدم. تراجعت خطوته إلى الخلف من هول الصدمة، اتسعت حدقتاه بذهولٍ مرعب، واستقرت يداه على رأسه كأنه يحاول تثبيت عقله في جمجمته.

لم يستطع استيعاب الأمر... تيبّس لسانه وهو ينظر إلى أجسادهم الحية، إلى أيديهم التي تلوح له، إلى دموعهم التي تنهمر فوق رماد المخيم.

ركضت ليان نحوه، وارتمت في صدره وهي تصرخ باسمه ، وتبعتها العائلة لتلتف حوله في عناقٍ مصلوب بالدموع .

كان آدم يتلمس وجوههم بأصابع مرتجفة، يلمس الخدود الحارة، ويمسح دموع أمه بذهول كأنه يتفقد أطيافاً؛ يهمس لنفسه بنبرةٍ متقطعة لا تكاد تُسمع :

أنتم أحياء؟... أنتم هنا؟ ألم... ألم ترحلوا جميعاً؟!

لم يثمل بالفرح، بل خرّ على ركبتيه وسط الركام، يشهق بدموعٍ جارفة طال احتباسها...

عشتُ أشهرًا أموت في اليوم ألف مرة وأنا أستقبل عزاءكم في صدري!

احتضنته أمه وهي تبكي بحرقة وتهمس :

كذبوا عليك يا أمي ... مازلنا بخير و ننتظر عودتك

كنتُ أقف على أطراف الزحام، أراقب آدم وهو يصرخ بسؤاله المفتوق بالجراح، ويتلمس عائلته بذهول المصدوم. في تلك اللحظة بالذات، خانتني صلابتي المفتعلة، وانهمرت دموعي بغزارة لم أستطع كبحها.

أما أنا، فكنتُ أعبر بينهم كالغريبة ، أنظر إلى وجوهٍ عادت إليها الحياة ، و ابحث عن حياتي التي فقدتها عندما فقدتك .

و فجأة... وسط ضجيج البكاء وصمت الركام، شعرتُ بخيالٍ يقطع الضوء من خلفي، وبظلٍّ طويل يمتد ليغطي قدميّ المجهدتين.

ثم جاء الصوت...

كنت أعلم أنني سأجدكِ هنا يا وطني .

تسمّرتُ في مكاني، توقفت أنفاسي في حلقي، وجمدت الدموع على خدّي. خشيتُ أن ألتفت فيتبدد الطيف، لكنّ يداً دافئة حطّت ببطءٍ على كتفي ، يداً لم تستطع زنازينهم أن تسرق منها ملمسها الدافئ .

التفتُّ ببطءٍ شديد، كمن يخشى أن يكسر زجاجاً حط على راحته ، وكان أنت .

شاحباً كنتَ، تعلو وجهك آثار الغبار والسهر وغلالةٌ من شقاء المخبأ، لكنّ عينيك... عينيك اللتين طالما طيّرتُ لهما رسائلي في السماء، كانتا تلمعان بالشوق والمحبة والإصرار ذاته ، ها هي الحرية أخيراً تلبسُ وجهك .

لم يبتعد أنس كثيراً؛ اختار أن يطرق بابنا في اليوم التالي مباشرة، ليجلس وسط عائلتي على حافة الجدار المهدوم الذي نعدّه بيتًا. لم يطلب مهلة، ولم ينتظر أن تتضح معالم القادم، بل خطبني رسمياً أمام الجميع .

وفي الأسبوع نفسه، ومع تدفق المساعدات وتفقد الأضرار، أعلنت إحدى الجهات التمويلية عن تنظيم حفل زفاف جماعي يضم مئة وخمسين عريساً من متضرري الحرب والأسرى المحررين .

نظر إليّ أنس بابتسامته المتعبة ذاتها وقال : لن ننتظر حتى يُعاد بناء المدينة يا وطن... سنبني حياتنا فوق حجارتها

لم يكن أنس وحده؛ إذ حزم آدم أمره هو الآخر، وسجل اسمه واسم ليان في القائمة ذاتها. وفي ذلك اليوم المشهود، ارتفعت زغاريد أمهاتنا رغماً عن الدمار، واجتمع مئة وخمسون عريساً يرتدون الفرح كدرعٍ ضد الفقد، وكان أنس وآدم يتبادلان النظرات بين الحضور؛ نظرَتين لرجلين استُعيدا من عتمة القبر ليُعلنا الحياة من جديد .

وبعد الزواج بأسبوع ، شقّ هدوء المخيم صوتُ صراخٍ محبب ينبعث من خيمة كيان. هناك، وسط صلوات الأمهات ودموع الاستذكار، ولدت كيان طفلها البكر. رفعتْه بين ذراعيها وهي تنشج بالبكاء، ومسحت على وجهه الصغير الذي يحمل ملامح أبيه الراحل تماماً، وسمّته كما وعدت دائماً : سوار

في تلك اللحظة، وأنا أقف بجانب أنس وننظر إلى المولود الجديد، أدركتُ أن الحرب قد هُزمت أخيراً ، ليس بالمعاهدات ولا بالهدن المقيدة، بل بهذه الأرواح التي أصرت أن تحب، وتتزوج، وتُنجب فوق الركام .

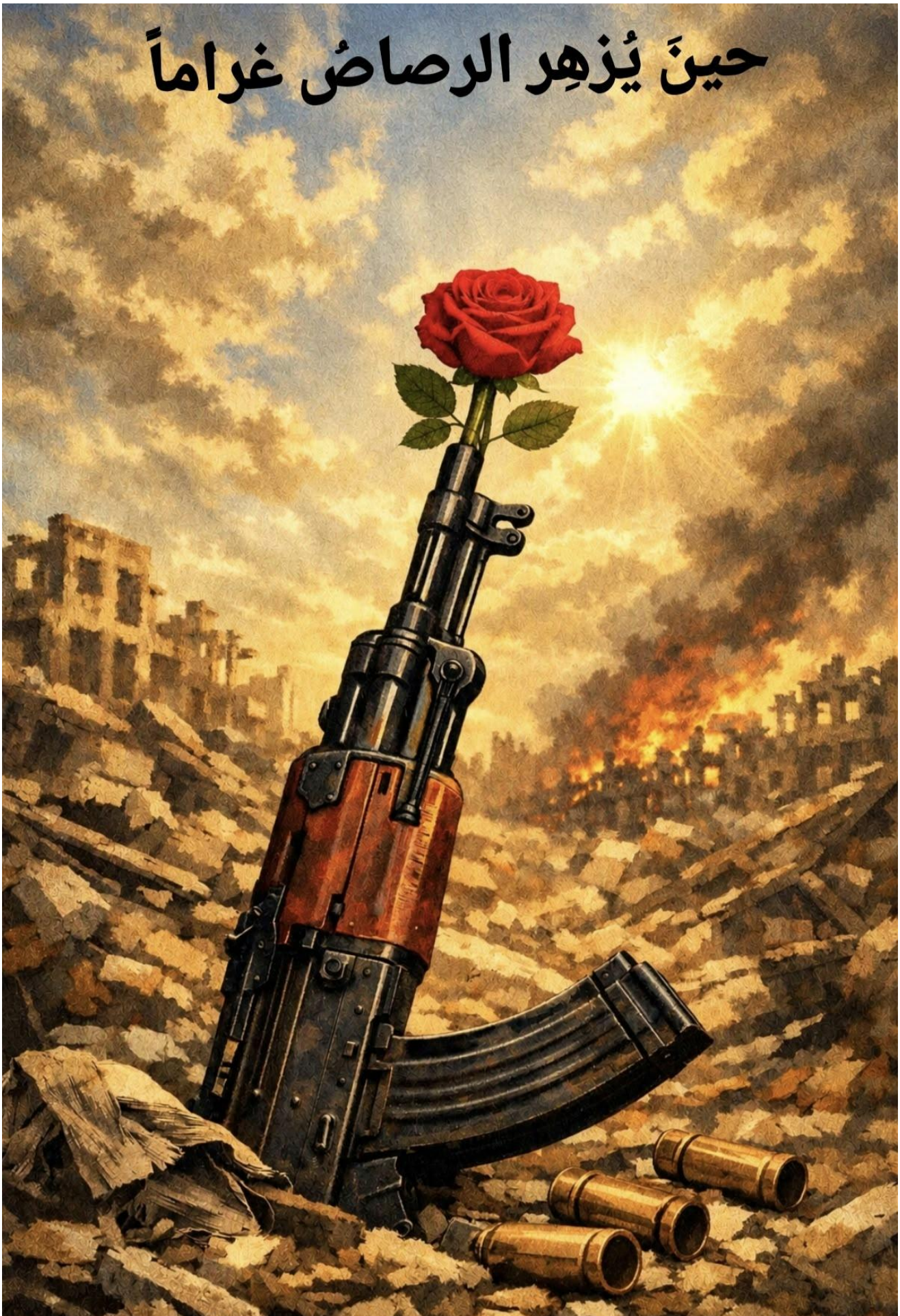
و ها أنا الآن أجلس بجانبك بقلبٍ منتصر بعد عامين و حرب ، أسرحُ بجمالِ عينيكَ البندقيّتين وبخراب هذه المدينة المنهكة ، و أضع رأسي على كتفك و كأنني أرتكئ على وطنٍ كامل لا تهزّه الحروب ، أتنفس عطرك المخلوط بغبار الحطام .

أتأمل كيف لملامحك التعبة أن تغزل من خوفي أماناً، ومن شتاتي بيتاً .

فقد انتصرتُ بك كما ينتصر الناجون بنفسٍ آخر من تحت الركام .

أما الآن عزيزي القارئ ، بعد أن خرجت من هذه الرواية حيّاً و طويت آخر صفحةٍ منها ، وتعاطفت مع أبطالها ، يمكنك أن تعيد ضميرك إلى غرفة الإنعاش ، إن بقي فيه نبض يستحق الإنقاذ !

و نسيت أن أخبرك بأنه يمكنك أيضاً أن تُطفئ ضوء التعاطف ، فالواقع خارج هذه الصفحات لا يحتاجه .


حينَ يُزهِر الرصاصُ غراماً